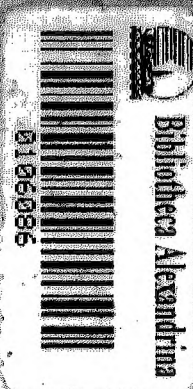
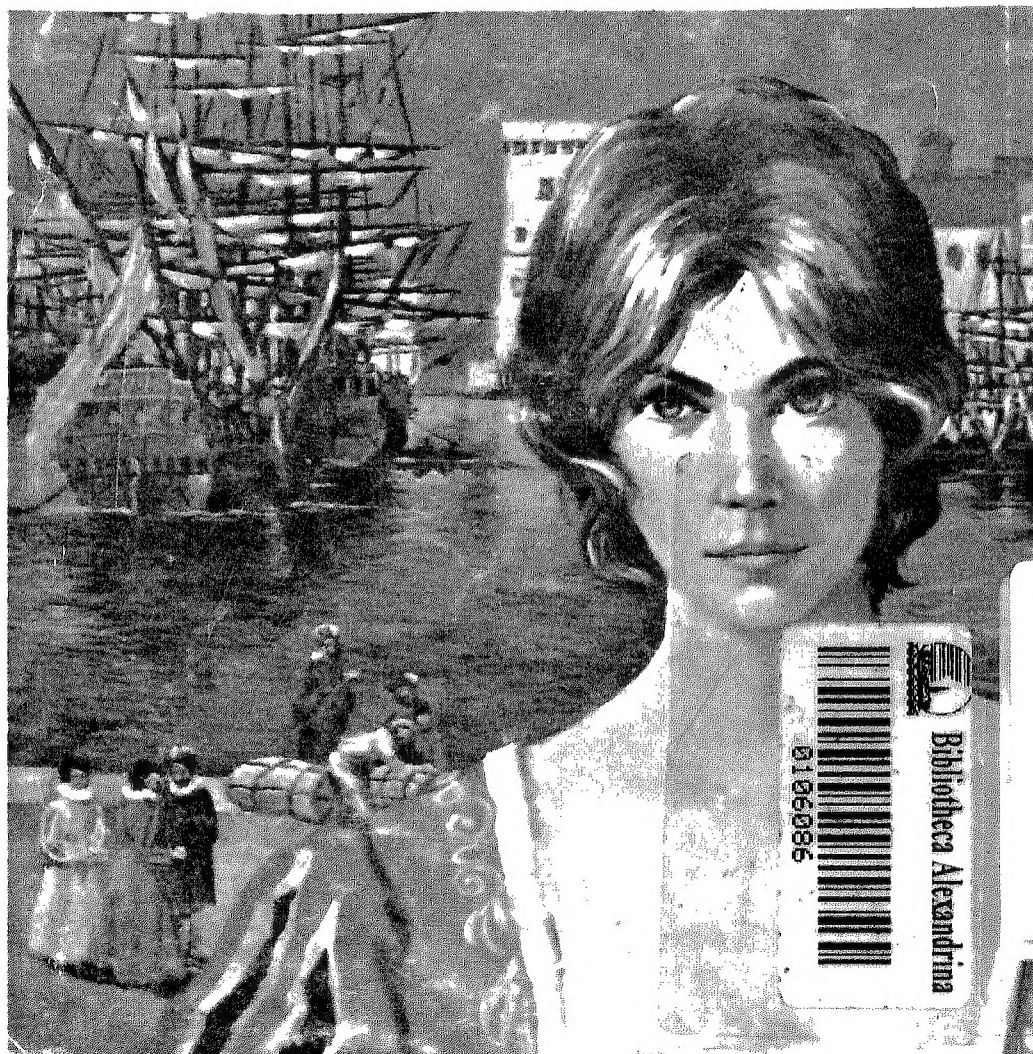


عزراء وثلاثه رجال

جيمس هيلتون

المكتبة العامة للجميع



عذراء وندوة رحال

عزراء وثلاثه رجال جيس هيلتون

ترجمة
اللاكورنكريتا مرزا

منشورات
المكتبة الحديثية - بيروت
دار الشرف العربي - بيروت

مؤلف الرواية

مؤلف هذه الرواية كاتب انجليزي معاصر في الخامسة والخمسين من عمره اذ كانت ولادته في لانكشاير - وهي مقاطعة انجليزية - في سنة ١٩٠٠ للميلاد

وقد تلقى جيمس هيلتون تعليمه الجامعي في جامعة من اعرق الجامعات الانجليزية ، وهي جامعة كمبريدج . وكان ملحوظ التفوق والالمية في مدة الدراسة . وهو من هذا الوجه يعتبر شبيها بطل قصته « كونواي »

وبلغ من نبوغه ان جريدة المانشستر جارديان قبلت نشر اعماله وهو بعد طالب بالجامعة ، ومنحته عنها اجرا . وذلك تقدير غير قليل ، اذا علمنا ان المانشستر جارديان ليست جريدة محلية تنسب الى مانشستر فحسب ، بل هي من اكثر الصحف البريطانية العامة اعتبارا واسبعها انتشارا

ومن باب المانشستر جارديان دخل جيمس هيلتون باب الصحافة والادب . وكان عمله في الصحافة الادبية ملحوظا من القراء والنقاد ، اذ عهدت اليه الدبلي تلفراف فيما بعد بمهمة محرر النقد الادبي للروايات . وهي وظيفة لا يعهد بها في الصحف البريطانية المحترمة الا لمن رسخت اقدامهم في الفن الادبي ، واستقرت الثقة باذواقهم وحسن وزنهم للانتاج الادبي المستفيض في تلك البلاد

ونستطيع ان نعرف مقدار الحرج الذي كان من الممكن ان يقع فيه المؤلف وهو يعمل ناقدا ادبيا في الصحف الكبرى ، اذا قدرنا انه هو نفسه من مؤلفي القصص . فهو يعرف ذلك الفن معرفة من اصطلح بنار الانتاج ، لا معرفة المتفرج المتفرج . وقديما قيل ان النقد يسير هين ، اما الانتاج فمسير شاق . ومؤلفنا قد عزف العلمين ، فلا يمكن ان يرمى بتلك . ولكن يمكن اتهمه بالتعصب لمدرسة معينة في الادب الروائي مثلا ...

وهذا أيضا كان جيمس هيلتون بريثا منه ، والا لما نجح في النقد
الادبي . وقد استمر يعمل في ميدانه سنوات طويلة الى أن تفرغ لكتابة
القصص بعد ذبوع شهرته فيها ذبوعا عظيما ...

ولقد سبق لسلسلة روايات الهلال أن أصدرت لهذا الكاتب
رواية « الافق الضائع » في نوفمبر ١٩٥٥ التي اعتبرت من اللعائم
القوية التي قامت عليها شهرته العالمية ، وضربت في توزيعها أرقاما
قياسية في أمريكا وانجلترا على السواء . ومن ثم أقبلت عليها شركات
السينما ، وأخرجتها على الستار الفضي ، كما أخرجت روايته الأخرى
« وداعا مستر شيبس »

واليوم نقدم لهذا القصصى البارع هذه القصة الممتعة « علماء
وثلاثة رجال » ، وهى كغيرها من روايات هذا الأديب القصص
العالمى ، تستحوذ على لب القارىء منذ بدايتها حتى نهايتها . وقد
استطاع جيمس هيلتون أن يحلل فى هذه الرواية الشائقة شخصيات
الرواية تحليلا دقيقا ، وأن يكشف عن أعماق أعماق العواطف
البشرية

ومنذ سنة ١٩٣٥ استقر جيمس هيلتون فى أمريكا ، واحترف
كتابة القصص السينمائية لعاصمة الشاشة الفضية « هوليوود »



أشخاص الرواية

- ♦ **فرينشام Frensham** : نرى من محبى المغامرات جمع ثروته من المشروعات المالية الناشئة ومن المناجم والمضاربات
- ♦ **مارجريت Margaret** : ابنته . ذات تفكير هادئ وصلابة وطباعها أقرب لطباع الرجال
- ♦ **بومى (بوميروى) Pommy** : ابنه . طيب كثير الاعتماد على غيره . ضعيف البنية فى صباه . موظف دبلوماسى
- ♦ **ليلي Lella** : ابنته الصغرى . جميلة عادية الذكاء محبة للهو ومفتونة بالتبرج
- ♦ **اوين بينجلى Owen Bingley** : رجل أعمال استغلالي من غلاة المحافظين قوى الشخصية محب للسيطرة وضد كل حقوق الطبقة العاملة . زوج ليلي
- ♦ **بولين برينلويت Pauline Bradthwite** : من الطبقة العامة . ممرضة متطوعة فى المستشفى المسكرى . تزوجها بومى
- ♦ **لوفل Lovell** : صانع نابغ ومخترع مكافح
- ♦ **كارول Carroll** : جندي أمريكى فنان
- ♦ **فرجيسون Fergusson** : طبيب الاسرة
- ♦ **دارنت Darrent** : سائق وسائل
- ♦ **مينشن Minchin** : ساقى الاسرة العجوز

الفصل الأول

أسبوع

ما من شك في أن ذلك الأسبوع كان أسبوعا يستحق أن يوصف بالجمال والروعة . وكانت مرجريت يومئذ توشك أن تبلغ الحادية والعشرين من عمرها وهي متوجهة في العربة التي تجرها الجياد المظومة الى محطة بادينجتون بعد أن أتمت أول زيارة لها لمدينة لندن وخامس مرجريت الاحساس بأن هذا الأسبوع الجميل لم يكن ينقصه شيء اللهم الا أن يكون معها يومى . فلو تم ذلك لكانت الروعة بالغة حد الكمال

وكان العبر اللطيف المنبعث من سيجار مرافقها يتسلل عبر العربة الى وجهها وأنفها . وكلما رمقته بنظرة جانبية من عينيها ، طالعته من وجهة نظره الرضا الذى يوشك أن يمسى تيهها وزهوا . فالحق انهما نعمتا طيلة هذا الأسبوع بتمضية وقت طيب هنىء

ومرت العربة أمام دار مدام تيسو ، فتذكرت مرجريت كيف استولت عليها الدهشة البالغة ، بل كيف اخذت عندما اكتشفت ذلك الشبه الشديد بين القاتل وينرايت وبين الشاعر لورد تينيسون . ولكن لندن مدينة حافلة بالاعاجيب والمدهشات . . .

وكانت مرجريت جالسة وقامتها منتصبية انتصابا كاملا ، وعقلها يقظان يقظة كاملة كذلك والعربة تدرج بهما ، وقبعتهما ذات الحصافة العريضة مائلة الى الامام فوق كتلة من شعر احمر نحاسى غزير ، ومن تحتها عينان عسلتان وبشرة وجه تركت فيها اشعة الشمس اثرا قويا . فلولا حمرة الشعر وصلابة الفك لظن الناظر انه ازاء فتاة تجرى فى عروقها دماء أهل الجنوب

ولم تكن تتكلم الا قليلا . ولكن صوتها العريض الغنى فيه مرونة

تكفل له القدرة على الارتفاع فوق لغط الثروة في حجرة حافلة ،
كما تكفل له القدرة على التسلل الى الاذن في طبقة الهمس وسط
تلك الضجة . وعلى الجملة كان كيم فرينشام راضيا كل الرضا عن
الامر الذي تركه ما رجريت في دوائر لندن
ولكن الشيء الذي فاته ان يفكر فيه هو الامر الذي تركه هو في
نفس ما رجريت بالذات ...

فعلى طول الطريق الى بادينجتون كانت مارجريت مستغرقة في
تقليب مشكلة جديدة ، هي مشكلة تلك الحياة « الأخرى » المدهلة
التي سمح لها والدها ان تلقى عليها نظرة خاطفة . وزادت دهشتها
كثيرا وهي تحاول الان ان تلقى نظرة شاملة تسترجع بها ذلك
الاسبوع كله جملة

ولو ان يومى كان معها لوجدت شخصا تتحدث اليه عن ذلك الامر .
اما الان وهى وحدها فليس امامها الا ان تقلب الخواطر وتعيد تقليبها
في ذهنها الحائر

لقد كانت تعلم بالطبع ان والدها كان طول حياته معدودا بين
الاثرياء . وانه بلا ريب ذو اصدقاء كثيرين لم تكن تعلم عنهم شيئا .
ولكن مع هذا اذهلها ذلك الاستقبال الذى تلقتها به دوائر المجتمع
اللندنى . ففي كل قلعة استقبال ، وفي كل ملعب من ملاعب
التمثيل ، بل في كل ركن تقريبا من اركان الشوارع الكبرى كان الكل
يهتفون به :

— مرحى ! اهلا بك يا كيم !

ولم تكن تعرف هذه الكنية لوالدها قبل هذا الاسبوع . فرأى
لذلك انه ينبغي ان يوضح لها الامر :

— اطلقوا على هذه الكنية لاننى منذ بضع سنوات جنيت شيئا
من الثراء عن طريق استثمارات في كيمبرلى ... فهناك مناجم اللماس
كما تعلمين

بيد ان هذا التوضيح لم يقلل من دهشتها وحيرتها . كانت منهذهشة
لان هذا الرجل الذى كان يتحدث على سجيته التامة مع الفلاحين
في الحقل او في الجرن ، يتكلم على سجيته التامة أيضا بنفس
الاسلوب الى الدوقات على مائدة العشاء

ومهما يكن من شيء فهي تشعر بالسعادة بعودته الآن معها الى
اولئك الفلاحين والى الحقول والاجران . فلما سألها والعربة تدرج
بهما فوق بلاط الشارع قرب المحطة :

— آسفة انت على مغادرة لندن يا مارجريت ؟

هزت رأسها هزة يسيرة جدا كأنها في شك من اسفها على
الانتهاء من تلك الرحلة السحرية . واستطرد والدها يقول :

— لقد فكرت في ان اتخذ لى بيتا في لندن في السنة القادمة
فسألته بشيء من الدهشة :

— بيتا لنا كلنا ؟

— لكل من استطاع او شاء الحضور . وربما استطاع بومى ان يأتى
الى ذلك البيت في فترات الزيارة . وسيأتى على كل حال ثلاثة
اشخاص هم انت ولىلى وأمكما . . .

فقال بتحفظ :

— هذا اذا قررت أمى المجيء

— آه . نعم . يجب ان نبذل جهدنا في اقناعها . فقد يجدى عليها
تبديل الهواء . وأنت تعلمين انى دعوتها للمجىء معنا هذه المرة ،
ولكنها أجابتنى بأنى لم اعرفها بتلك الرغبة قبل السفر بوقت يكفيها
للتأهب له . ولذا بقيت في الدار

فهزت مارجريت رأسها هزة من تدرك الظروف وتقدرها .
واعتصمت بالصمت الى ان دخلت العربة فناء المحطة . وقفز الاب
هابطاً الى الارض ، ثم أعانها على النزول . فشعرت عندئذ بما كانت
تشعر به دوماً في الامكنة المزدحمة من زهو شديد لوجودها معه .
فهو فارع الطول ، ضخمة القامة ، وسيم أسمر الوجه ، تزيينه سالفتان
بلون رمال الشاطئ . وكل حركاته وتصرفاته توحى بالعظمة والابهة
وازهتها سخاوته فكانه أمير من الامراء في عطيته الكريمة للحوذى ،
وفي امره للجمال بأن يذهب بالحقائب الى القطار المسافرين صوب
شيبينج نورتون . وبلغ زهوها وافتخارها به غايته حتى لقد
طفرت الدموع فعلا الى عينيها وهو يأخذ بيدها معتمداً على ذراعه
مخترقاً بها فناء المحطة

ولما اقتربا من كشك الصحف والكتب وضع في يدها نصف جنيه

ذهبا وقال لها :

— اشترى لنفسك شيئا تقراينه فى الطريق ، لاننى قد لا استطيع ان اتحدث اليك كثيرا اثناء الرحلة . فقد رتبت الامر بحيث يقابلنى هنا رجل ليسافر معنا ، ويقضى فى بيتنا بضعة ايام . رجل اسمه مستر لوفل ...

وبعد ساعة من الزمن كانت تحملق والوسن يداعب جفنيها من خلال النافذة ، وقد اخذ القطار يقترب من ريدينج . وفوق ركبتيها مجلة ذات غلاف ازرق تضم موضوعات جيدة . ولكنها أسفت لانها لم تجد فيها قصة من تلك القصص المدهشة التى يقوم بالبطولة فيها شارلوك هولمز ...

ولا شك فى انهم سيضطرون لتغيير القطار فى محطة شيبينج نورتون . ولكن ذلك افضل على كل حال من الاستمرار فى اختراق مقاطعة جلوسستر . وكم يكون بديعا ورائعا لو أمكن الطيران فى الهواء بواسطة الة من الآلات . . . فى المجلة مقال عن شيء من هذا القبيل . وزعم كاتب المقال ان ١٢ انسانا ما أفلح فى تحقيق هذا الحلم فى مكان ما بأمريكا !

وبين الحين والحين كان يطرق سمعها عاليا فوق ضجة القططار صوت والدها العميق الرنان المرح :

— ولكن يا عزيزى لوفل ... خذ بالك ... اسمح لى لحظة واحدة ان اراجعك فيما قلت الان ..

وكانت للرجل الغريب طريقة خاصة فيها ثقة وحماسه وهو يقول :

— اؤكد لك يامستر فرينشام ... انا متأكد ... انا واثق ... وكان اكبر منها . لقد قدرت له عمرا يقرب من الخمسة والعشرين عاما

ولم تكد تحدث فترة صمت بين احاديث الرجلين المتصلة ، الى ان آن للثلاثة ان يغادروا القطار كي يركبوا قطارا جانبيا بطيئا . وعندئذ التفت اليها والدها ، وأبدى لها عن امله الا تكون احاديثه المتصلة مع ضيفه الشاب قد أضجرتها . فانسمت واجابته انها فى الحقيقة لم تكن مصغية بأى وجه من الاوجه الى مايقولان . فانفجر الاب

ضاحكا بصوت مرتفع وهو يدس ذراعيه في ذراعيهما ليسيرا على طول رصيف المحطة وقال للشاب :

— لعمري يالوفل هذه تحية لك ! فهذه السيدة الشابة لم تعرك سمعها ! وهذا ميزان نزيه لقيمة أفكارك !

فاحمر وجه الشاب احمرارا شديدا ونظر اليها فيما خيل اليها — بشيء من التوسل . وعندئذ أشار أبوها الى القطار الذي كان عليهم ان يستقلوه وقال لها :

— هذا يمارجريت شيء ربما طاب لك ان تعلمي انه صار من مخلفات الماضي . لقد أصبح البخار مقضيا عليه . وفي مدى عشر سنوات سنكون جميعا راكبين قاطرات تسير بالبترول نمخر بها الشوارع والطرقات !

فهتف الشاب متحمسا :

— سيحدث هذا حقا يامستر فرينشام ! انا على يقين من هذا ! وكانت هذه اول مرة تتفحصه فيها بنظرها وحواسها تفحصا دقيقا واعيا . فاذا به طويل عريض الكتفين . وعينه حالكتا السواد ، لاستعان بوميض خاطف تكاد حماستهما ترمي بالشر . وكانت سحنه كلها تدل على صفة واحدة تنم عنه هي اللهفة

واستطرد الوالد يقول وهم يدخلون مقصورة في القطار البطيء : — هيا الآن يالوفل اتمم كلامك . فانا على تمام الاستعداد للاصغاء ، حتى ولو لم تكن مارجريت مستعدة لذلك . ولعلك قادر ان تقنعني ان انت بدلت في ذلك جهدا كافيا . فانا على كل حال مهتم بالموضوع اهتماما فوق المألوف . استمر اذن في عرض الفكرة ياولدى ... هيا !

. واستأنفا الكلام والمناقشة والمجادلة والافتراض الى ان توقف القطار في محطة جانبية صغيرة . وكان الظلام قد أخذ يقترب ، فخيتم عتبة القسوق . ولما نزلوا وجدوا في انتظارهم دارنت في العربة الكبيرة ، تعبت يده بقبعته وهو يتقدم لحمل الحقيبة . وقد شدت الى العربة فرسان بيضاوان تعرفهما جيدا ، فاحداهما طبق القشدة والاخرى زهرة الحقل . وكانت صورة العربة وفرسائها وسائقها كافية لابرار احساس مفاجيء لديها هو الاحساس بالوطن

... الموطن بكل ما يكتنفه من اعزاز وحنين وجمال ، لا يشاركه فيه
أى موضع آخر

وسألته مارجريت :

— هل أُمى بخير يادارنت ؟

وأجابها الرجل بلهجته الاقليمية الظاهرة التى تنسبه عند سامعه
على الفور الى اقليم جلوسستر شاير :

— على حالها المؤلف يا آنسة

وبعدئذ انطلقت العربية بثلاثتهم . وكانت مارجريت أثناء خيب
الفرسيين مدى الاميال الخمسة ، تمنى بينها وبين نفسها الا يتخذ
أبوها ذلك البيت الذى حدثها عنه فى لندن . لأنها شعرت برغبتها
التامة عن مفارقة هذا الاقليم ، الذى تسفيه الرياح وتراوجه بما فيه
من وديان منعزلة ، وتلال عارية تختلف ألوانها بين الخضرة والحمرة ،
وحيث أيماء رجل مر بهم على الطريق يلمس قبعته ، لا لمساة
الدلة والزلفى ، بل عن سرور قلبى بمطالعة وجهها ووجه أبنائها
الاثير لديه ...

ولما طأمنت الفرسان من ركضهما الى ضرب من الخشب عند
المنحنى الكبير ، ظهرت الدار المعتيقة لعينيها ، فألقت مارجريت
نظرة ثاقبة على لوفل ، لأنه خيل اليها أن انعقل يمنع أن يرى انسان
تلك الدار من غير أن يطلق صيحة اعجاب

وهتفت وهى تشير الى رسم الدار من بعيد :

— هاى ستاوا ! ان ستاوا فى الواقع هو اسم ذلك التل الذى تراه
هناك وفوق قمته هذا البرج . ولكننا نسمى الدار أيضا هاى
ستاوا !

وكانت الدار قائمة وراء هذه الوادى على مرتفع قليل فى الارض ،
ومن ورائها انتشرت التلال وقد أرتسمت معالمها بوضوح خلال
أشعة الغروب الاخيرة ، وكانت تلك الدار بناء مربعا متين المنظر
مشيدا من صخور رمادية اللون ، ترى بكثرة فى تلال تلك المنطقة .
وكانت فى الاصل بيتا ريفيا كبيرا بعض الشيء ثم أضاف اليها
المالكون بعد المالكين اجنحة واروقة بغير نظر الى التناسق العمارى ،
فجاء الشكل النهائى غير خال من جاذبية مصدرها الطرافة

وموقع الدار رائع ولاشك . ويبدو على بعد كبير للناظر جمال
حدائقها التي تشرف من ارتفاعها القليل على بطن الوادى وقد
رصعت أكتافها بألوان ناصعة رائعة يمثل كل لون منها حوضا كبيرا
من أحواض زهور الصيف
وابتسم كيم فريشام لما أبدته ابنته من حماسة لمسقط رأسها
وقال :

— هذا هو مسكنى الصغير يا لوفل . وهو ليس دارا عريقة توارثها
الآباء عن الأجداد . فأنا لم امتلكها الا منذ أكثر قليلا من عشرين
سنة

وما ان أستقبلهم مينشن فى البهو حتى ابتدرته مارجريت بذلك
السؤال عينه الذى رجته من قبل الى الخوذى دارنت . وتنهى
مينشن وهو يحمل الحقائق وأجابها تلك الاجابة بعينها :
— ليس هناك تغيير يذكر يا آنسة مارجريت . فقد عاودتها آلام
الروماتيزم ، ولكنى لاحظ دائما أن وطاة تلك الآلام تشدد مع ظهور
كل هلال

هلال جديد ؟ وهل ظهر فى السماء الهلال ؟ لقد فاتها أن تلاحظ
ذلك وهذا بلا ريب أحد الأشياء التى يفوت الناس ان يفتنوا اليها
فى لندن ...

ولما قاد مينشن الضيف لوفل الى حجرته التى سينزل بها فى
الدار صعدت مارجريت مع أبيها الى الطابق العلوى . وكان هذا
الصعود هو الرحلة المعتادة كلما عادا الى الدار من الخارج ، حتى
ولو كان خروجهما لجولة صباحية بين خمائل الحديقة فما أن
يدخلا عتبة الدار وتقع عيونهما على الدرج الكبير حتى يقول هو أو
تقول هى :

— أوه . ينبغي أن نصعد الآن لنرى كيف حال ماما ...

وكانت هى التى قالت ذلك فى هذه المرة ، ودخل الاثنان عليها
معا ، فاخرقا عرض البساط الشرقى السميك حتى مثالا امام
الفراش الضخم المصنوع من حسب الموجنة ، بأعمدته الأربعة
وزخارفه المنقوشة بالحفر فى ذلك الخشب الثمين ، وستأثره
القرمزية الحمراء المطرزة بطنف من القصب واسلاك الفضة

أجل كانت أمها في فراشها حيث كانت تتوقع أن تجدها ، وكانت هناك شمعتان كبيرتان مركبتين في شمعدانين عاليين من الفضة الخالصة ، تلقبان ضوءا مرتعشا فوق جبل صغير من الوسائد الكبيرة والصغيرة . ووسط هذا الجبل ارتسم وجه امرأة يتميز بصفره غير المألوف ودقة ملامحه . وكان الرأس والشعر مغطين بطاقيّة من المخمرات المالطية الفاخرة ، تبدو من تحتها العينان ينبعث منهما وميض ثاقب ثابت مستقيم . وميض ورثته مارجريت ولكنها ورثته مع زيادة في النفاذ والدقة وقوة الوقع في النفس

وارتفع من بين الوسائد صوت رفيع يسأل بهدوء :

— أذن قد عدتما ؟

— نعم يا أمه

— وكيف وجدت لندن ؟

— رائعة أشد الروعة

— هذا ما قدرت أن يكون عليه رايك . ألم تأتيا معكما بأحد من

هناك ؟

فتدخل الاب في الحديث ، وقال :

— أتينا بصديق لى اسمه لوفل . ومن المرجح أنه يمكث معنا

بضعة أيام

— آه .. فقد خيل الى انى سمعت صوتا غريبا يتحدث الى

مينشن في الهو ... فلى اذنان مرهفتان ... وفي ذلك تعويض لى

عن ساقى الواهنتين فيما اعتقد !

وسرعان ماذق بعد ذلك الطبل الهندى الذى يقرع ايدانا بالعشاء ،

فخرج الاثنان من مخدع الام المريضة . وفيما هما يهبطان الدرج

قالت مارجريت :

— يخيّل الى أحيانا أنه ربما كان من الخير لها ان تنهض من

فراشها ، وتحاول القيام بأى نوع من النشاط العادى

وأجابها أبوها وهو يعقد ذراعه فجأة بذراعيها :

— وهذا ماطالما ألح عليه الأطباء منذ زمن بعيد !

وكانت وجبه العشاء مرحة خفيفه الروح ، مع ان الجالسين الى

المائدة لم يكونوا أكثر من ثلاثة . وأتيحت الفرصة لمارجريت كى

تسمع بوضوح هذه المرة شيئاً كافياً عن طبيعة زيارة لوفل ، وعن الغرض منها . فهو قد اخترع شيئاً ، على ما فهمت من غضون الحديث ، وهذا الاختراع طراز محسن مهذب لآلة تدار بالبترول وهذه الآلة سيكتب لها على الأقل أن تحدث ثورة كاملة في جميع نظم النقل في سائر أقطار العالم

ولم يتخرج شخصياً في التصريح بذلك . وفطنت منذ أول وهلة إلى قدرته الخارقة على عدوى سامعيه يتفاؤله الضخم . ويلوح أن بعض الناس كان الصلة بينه وبين أبيها ، على أمل أن يقبل باعتباره رجلاً من رجال المال ، أو ربما باعتباره مقامراً مقامراً ، التكفل بهذه المغامرة . وكان من الواضح منذ الآن أن أباه شديد الاهتمام بهذا الموضوع الجديد

وسأل فرينشام ضيفه إن كانت هناك آلة تجريبية أو نموذجية تمثل ذلك الاختراع الجديد في أي مكان . فقال له لوفل إن هذه الآلة التجريبية موجودة ، ولكنها غير تامة في الوقت الحاضر .
- ولكن هل يستطيع أن أراها ؟

- نعم بالتأكيد تستطيع ياسيدي إن تراها إذا شئت . وهي موجودة في برمنجهام وتحتاج إلى عمل يستمر بضعة أسابيع ، قبل أن تعطى أداء لائقاً يفي بالفرض

ثم كأنما ضاق لوفل بأسئلة أبيها على اعتدالها الواضح ، فاتفجر قائلاً :

- اسمع يامستر فرينشام . اني أرى بوضوح أنك لا تريد أن تقدم على شيء من غير برهان عملي . فانت مستريب بطبيعتك . ولست ألومك على هذا . ولكني أحب أن أقدم إليك فكرة عما لاقيته من مشاق في سبيل هذا الاختراع ، وإخراجه إلى حيز الوجود عملياً . فهناك أولاً عقبة الافتقار إلى المال الكافي . ولكن ادعني من هذا وأمر أنني كنت أفترق إلى مكان مناسب للعمل . فالمكان الذي كان تحت يدي عبارة عن حجرة صغيرة يكاد حجمها لا يتجاوز حجم صوان الملابس الموجود في بينك ! ولم يكن تحت يدي طريق أستطيع أن أستخدمه لإجراء الاختبارات . فلابد أن يكون الطريق بمنزلاً . فلو أخرجت آلتى في أي مكان قرب برمنجهام ، لتجتمع حولي في مدى

دقيقتين خلق كثير

لقد كنت طوال الوقت أقاوم التيار من جميع الوجوه . ولا يمكن أن تكون لديك فكرة عن مثل هذا العناء فقاطعه فرينشام قائلا بهدوء :

— لقد جربت في حياتي السباحة ضد التيار في ظروف كثيرة ... هذا أذن هو السبب الذي حال دون وجود ثمرة محددة لفكرتك تطلعنى عليها . أنى أستطيع أن أدرك هذا وأقدره تماما . ومهما يكن من شيء ، ففى استطاعتك إذا كان المكان المناسب عائقا جديا ، أن تحضر ألتك الى هنا كى تفرغ منها وتتم انشاءها ؟ وبين الاراضى المملوكة لى عدة اميال من الطرق الخصوصية ألتى لن يتجمع فيها الخلق مهما بدا لك أن تصنع ...

وبعد فترة صمت طويلة غمغم لوفل قائلا :

— أنى مدين لك بأعظم الامتنان يامستر فرينشام . وسأحضر ألتى الى هنا فذلك العرض الكريم من جانبك سيسهل لى جانبا كبيرا من المصاعب . وأن لم يكن لديك مانع فانى استأذنك فى السفر الى برمنجهام فى بكرة صباح غد ، كى أقوم بالتمهيدات والترتيبات الضرورية لوصول أدوائى الى هنا . ولن تطول المدة بعد ذلك فى العمل . فمتى بدأت فيه لم يستغرق منى اتمامه أكثر من عشرة أيام ، أو ربما كان أسبوع واحد كافيا إذا حالقنى الحظ . وعندئذ .. وعندئذ سترى بنفسك أننى كنت أعنى بحق كل حرف قلته لك . وسوف تقننع بوجهة نظرى . أنا واثق من ذلك ... وعلى يقين جازم !

فابتسم فرينشام ابتسامة من خبر الدنيا وعلمته التسامح مع المتحمسين وقال له :

— لكن . وسوف يقوم دارنت بتوصيلك فى العربة الى شلتنهام غدا صباحا فى موعد يسمح لك بركوب قطار برمنجهام السريع من هناك . والآن أن كنت تشعر بمثل ما أشعر به من الاجهاد ، فلنذهب الى مخاضنا لنلتمس فى أحضان النوم راحة من عناء

الفصل الثاني

رحلة

وفي صباح اليوم التالي تولت مارجريت بنفسها قيادة العربة الصغيرة لنوصيل لوفل الى شلتنهام . وكان المفروض ان يقوم دارنت بهذا العمل كما قال والدها بالأمس ، لولا ان أمها فُتت لديها الرغبة على حين غرة في التجول بين ازهار الحديقة . وتجوالها منذ مرضت مرضها هذا الطويل كان دائما في مقعد ذي عجلات . وهي لا تبعد بمهمة دفع المقعد الا الى دارنت . وهكذا أصبح على عاتق مارجريت ان تقود المركبة الصغيرة حاملة الضيف الشاب ليلحق القطار

ولم تكن مارجريت لتبالي هذه المهمة فهي تحب القيادة . ثم انها سجد الفرصة سانحة أمامها لقضاء حاجات شتى في بلدة شلتنهام فهذه البلدة حافلة بالحوادث والناس . وهي من جهة ثالثة تحب ان تقوم باطلاع الغرباء على معالم المنطقة ، وان ترشدهم الى المناظر الجميلة والبقاع الطريفة ، وان تنقل اليهم ان استطاعت شيئا من تلك الحماسة العميقة المسارب في نفسها لذلك الريف الحبيب اليها

ولكن هذا الغرض الاخير لم يكن من اليسير عليها تحقيقه هذا الصباح وهي في صحة لوفل . لانه كان في شغل عن حماسها بما لديه من حماسة شديدة لمشروعاته . وقد فطنت الى ذلك بعد ان تلقت منه اجابات مقتضبة يسيرة ، تعليقا على ملاحظاتها بصدد المناظر والمشاهد التي يمران بها ، فقالت له بصراحة :

— أعتقد أنك لا تهتم كثيرا ولا قليلا بهذا كله !

— بل اهتم يا آتسة فريشام كثيرا بما تطلعيني عليه من المشاهد الجميلة ، وان كنت مشغولا في اعماق نفسي بأمر آخرى .

فلا تظننى انى غير مستمتع بما حولى من جمال . انه ليروقتى . . .
كثيرا جدا . بل انى اكاد أجن من فرط السعادة . فلم يسبق لى أن
شعرت بمثل هذه السعادة فى حياتى كلها . . .
— لماذا ؟

فزاد التفاته نحوها وقال :

— لانى أعلم اننى بعد وقت وجيز جدا سأنتهى من اقناعى لوالدك
بتبنى اختراعى الجديد . . .

— حدثنى عنه . . . بالفاظ وعبارات فى مقدورى أن افهمها

وكان هذا هو الموضوع الذى يطيب له أن يخوض فيه . ومتى بدأ
تدفق الكلام من فمه فلا يكون ثمة سبيل الى وقفه . ووجد لزاما
عليه فى هذا الصدد أن يعود بها الى البداية ، ويعصور لها طقولته
الاولى وصباه فى البيت وفى المدرسة . . .

وكان لوفل من أهل الاقاليم الوسطى والده رئيس عمال فى مصهر
وهو شخصيا كان صبيا يتعلم صنعة نفخ الزجاج فى أحد المصانع .
وظل مثابرا على هذه المهنة حتى سن السابعة عشرة ، وفى تلك السن
ضاق ذرعا بهذه المهنة التى تخنق أطماعه العريضة ، فقاده طموحه
الى دراسة هندسة الآلات ، ومنذ ذلك الحين وهو يكافح فى هذا الميدان
حتى الوقت الحاضر . وقد بلغ الآن السابعة والعشرين . . .

— . . . وفى هذه السنوات العشر ما أكثر الليالى التىبتها على
الطوى ، لاشرى بثمن طعامى أداة باهظة الثمن لاغنى لى فى ابجائى
متها . وكنت أستيقظ كل يوم فى الرابعة صباحا ، لأعمل فى تجاربى
الهندسية قبل أن أتوجه الى عملى الرسمى فى مصنع الزجاج .
قضيت هذه السنوات العشر فى كفاح قاس . ولكن اذا أعطيتنى عشر
سنوات أخرى فانى زعيم لك أن تطبق شهرتى الافاق . أنا واثق
أن هذا اليوم . سيجىء حتما !

ولما وجدها لا تعلق على ذلك الكلام بشيء استطرد قائلا :

— أعلم أنك تظنين بى الغرور والادعاء . وهذا ظن لغير كبير من
الناس بى . ولكن لا حيلة لى فى هذا . وشعورى بما أقول شعور
صادق لا تزوير فيه . ولا ادعاء . ثم لا تنسى اننى ما كنت لامضى فى
كفاحى كما فعلت لو لم تكن لدى هذه الثقة الضخمة بنفسى

وكان ذلك النهار يشمر من بدايته بارتفاع الحرارة . فها هي ذى التلال وهما يقبلان على مشارف شلتنهام تتوارى عن الاعين وراء ضباب فى لون اللين . وعرضت عليه أن تلقاه بالعربة عند المحطة حين عودته فى المساء . ولم تنسه حماسه أن يسأله على سنة المجاملة المبهذة :

ـ اليس فى ذلك انقال شديد عليك ؟

فاجابته قائلة :

ـ كلا ... فهذا اهون بكثير من العودة الآن الى الدار وارسال دارنت بالعربة بعد الظهر . وفى استطاعتى اذا قضيت النهار هنا أن انتقل بين الحوائيت عسى أن اجد شيئاً أحب أن اقتنيه . ولى أخت اصغر منى اسمها ليلى تطلب العلم فى مدرسة هنا . فلن يثقل على قضاء سحابة النهار على وجه ممتع . اؤكد لك هذا

وبعد أن ركب قطاره السريع ذهبت بالعربة والجواد الى احد الاسطبلات ، ثم أخذت تمشى فى الشارع الرئيسى الذى يمتاز بعقود من البناء على جانبيه تتيح ظلاً رطيباً تحت اقواسها . وذكرتها واجهات الحوائيت بحوائيت لندن وواجهاتها ، وصعب عليها أن تصدق انها كانت هناك منذ اربع وعشرين ساعة فقط . فان كل ابهة ذلك الاسبوع الرائع ، وذلك الحشد الهائل من التزاويق والزخارف ، بل ومنظر الملكة فيكتوريا المعجوز المسكينة فى عربتها الملكية الفخمة ... كل هذا قد بهت وأصبح من مخزونات ماضى لا تكاد تتبينه العين

وبعد الظهر توجهت لزيارة ليلى فى مدرسة خصوصية راقية لبنات الاسر الكبيرة عند مشارف المدينة . وهى بعينها المدرسة التى تلقت هى نفسها دروسها فيها منذ سنوات . والحق انها كانت تلميذة صعبة المراس ، لقيت المعلمات عناء شديداً فى حملها على احترام النظام والمثابرة على الدرس . ووجدن عناء اشد فى حملها على الافلاح من عاداتها المثيرة لاستنكارهن الشديد . فقد كانت ولم تزل تمشى مشية الرجال ، وتحقق تحديقاً ثابتاً قاسياً فى الغرباء ، ولا تبالى أن تبدي رأيها الصريح فى شيء !

اما ليلى فهى على خلافها فى كثير جداً من الصفات . فهى ظاهره الانوثة بصورة ترضى معلماتها العوانس ، ذات اسلوب دمث فى التعبير

والسلوك والمشي . وهى أيضا أجمل بكثير من اختها الكبرى ، وأكثر بشاشة وميلا للمزاج . وكانت الناظرة تقول عنها :

— لىلى فرينشام أجمل فتاة فى شلتنهام . ولو ان والدها قام بما ينبغى عليه نحوها لتزوجت زواجا مرموقا جدا !

وتلطفّت الناظرة فسمحت للفتاتين بتناول الشاي معا . فوجدت مارجريت أختها لىلى مهتمة جدا بسماع ما ترويه لها عن مشاهداتها فى أسبوع البوبيل الذهبى للملكة فى لندن . ولما فرغت مارجريت من روايتها ، مطت لىلى شفيتها وقالت :

— لم يحسن أبى صنعا اذ اخذك معه ولم ياخذنى . فانا واثقة اننى كنت سأستمع بذلك كله عشرة أضعاف استمتاعك . فأنت دائما هادئة ولا اعتقد انه يمكن أن تهتز أعماقك استمتاعا بشيء . واعتقد أيضا أنك راضية كل الرضا بمواصلة الحياة على الأسلوب القديم فى هاى ستاو ، اليس كذلك يا مارجريت ؟

فاجبتها بكل هدوء :

— هذا صحيح . ولكنك فيما اعتقد لا تحبين كثيرا حياة الريف !

— بل انى ، أمقتها

— اذن سيسعدك أن تسمى منى أن والدنا يفكر فى اتخاذ بيت فى لندن فى الموسم القادم

فصفت لىلى بيديها فى جدل شديد وصاحت :

— لندن ؟ لندن ! أوه يا مارجريت . هل هذا صحيح ؟ وستكون

ثمة استقبالات ومراقص وارتياذ للمسارح و . . .

ثم كفت عن الكلام فجأة وسألتها فى انتشاء :

— خبرينى بربك : ألم تقع عينك فى لندن على رجال ذوى وسامة وجمال ؟

— لم أجعل همى فى ذلك

— ولكن ألم تقع عينك على أحد ؟

— لم أر هناك فيما اعتقد أحدا يضارع أبى وسامة وجمالا

فهزت لىلى كتفيها فى استياء وقالت :

— أوه . أنت كعادتك تحاولين الظهور بمظهر البراعة . . وأنا

أكره هذبا ! أتعرفين ان هناك رجلا وسيما وسامة مدهشة واننا نراء

كل يوم تقريبا ... لانه يتمشى على طول الطريق خارج هذه المدرسة في اوقات منتظمة جدا ؟ واظن انه تقيب في فرقة الفرسان . وله اشهى عينين وشارب . ومنذ ايام كنت اطل من الشرفة فرآنى وابتمس



وبعد ساعة استقبلت مارجرىت لوفل عند وصوله . وكانت روحه المعنوية لم تزل عالية . وكذلك كانت معنوياتها ايضا . ولكنهما لم يكترا في رحلة العودة من الحديث مثلما اكثرا منه في رحلة الذهاب . واطبقت العتمة عليهما قبل ان يصلا الى هاى ستاو بوقت طويل ، وظهر الهلال عاليا في قبة السماء ، فبدت حقول الغلال المترامية كأنها بحار من الفضة

وبعد فترة صمت طويل ساد بينهما قالت له :

- انك لم تزل تفكر في اختراعك هذا ، اليس كذلك ؟

فقال بعد شيء من الروبة :

- بلى . افكر فيه ... وانت فيم تفكرين ؟

فأجابته ببساطة وصراحة اذهلته :

- فيك انت !

وبعد يومين وصلت أدوات عمله من برمنجهام في عدة صناديق كبيرة ، فاتكب على العمل فورا بهمة ونشاط عظيمين . فكان يبدأ العمل عادة قبل الساعة السادسة من الصباح ، ويظل مثابرا عليه الى وقت العشاء ، باستثناء فترتين قصيرتين للافطار والغداء . وكان حريا ان يستمر في العمل بعد العشاء أيضا لو ان فرينشام ترك له فرصة لذلك

وفي كل ليلة بعد تناول القهوة كان يدلى ببيان عن عمله في ذلك اليوم ، في لغة فنية حافلة بالاصطلاحات . فكان من العسير على مارجرىت والالها ان يدركا على وجه الدقة مراده بالضبط . وكان وميض عينيه يزداد توقدا وهو يتحدث عما أحرزه من تقدم في يومه فكانت مارجرىت تشعر أن بداخله حيوية تمده بقوة جاذبية غريبة وذات يوم أشتدت الحرارة حتى أنه بعد الظهر وقع فريسة للجو الخائق ، فانهارت مقاومته وسقط بين ذراعيها وهى واقفة وراءه

ترقب ما يصنع . فاضطرت الى حمله بين يديها حملا بغير مساعدة
من احد الى خارج العريشة ، وارقدته على أرض الفناء الداخلى لحجرة
الالبان وحظيرة البقر . فلما أفاق من الاغماء بعد ذلك ظهرت عليه
دهشة بالغة وقال لها :

— لا بد انك قوية قوة خارقة

فأجابته ببساطة قائلة :

— نعم . أنا قوية جدا !

واحمر وجهها احمرارا شديدا تحت نظرة الإعجاب السافر التى
طالعها بها ، ثم استطردت وانفاسها تلهث قليلا :

— لقد اسرفت على نفسك فى مواصلة العمل رغم حرارة الجو .
ويجب عليك الان أن توقف العمل برهة ... على الأقل الى أن
تتلطف أنفاس الهواء بعض الشيء

وكم ادهشها انه انتقاد لرأيها على الفور ، واجابها وهو مستمر فى
التطلع اليها بذلك الإعجاب الصريح :

— سأعتبر نفسى فى اجازة طول يوم غد اذا شئت ذلك . وربما
اذا كان الجو معتدلا ، واذا ... اذا تكرمت أنت ذهبن معا لترينى
المواضع الطريفة فى هذه المنطقة . فانا واثق أن للطبيعة فى هذا المكان
مكامن كثيرة للسحر والطرافة

وكانت مسرورة جدا لما توقعه فى تلك الرحلة من متعة . ومسرورة
جدا لانه هو الذى اقترحها بادئا . وكم كان غريبا فى نظرها ايضا
أن يعلق بهذه الدهشة على قوتها البدنية الفائقة . حتى انها الان فجأة
شعرت بقوتها تربو وتزداد فى داخلها كأنها نافورة يثور ماؤها بحيث
أحسست بدمائها تضطرب بتلك القوة الفوارة فى عروقها

وواجهته بنظرات عينيها الثاقبة المستقيمة التى لا تعرف خوفا
ولا ترددا ، وقالت بثبات :

— سنتجول فى أنحاء التلال . ونتجاوز تل ستاو الى نورث ليدج
ثم نعود مخترقين تل ستاو مرة أخرى ...
— سنذهب حيثما راق لك الذهب

ولاول مرة رأت فى عينيه ذلك الوميض العجيب من غير أن يكون
تفكيره منصبا على آلهة التى تدار بالبترول

وفي تلك الليلة دار حديث طويل بينها وبين والدها . فقد صعد
الوالد الى حجرتها بعد ان اوت الى فراشها . ودار الحديث بينهما
في البداية حول لوفل . فقال :

— اخبرني مينشن ان الحرارة كانت شديدة الوطأة حتى عجز
صديقك عن احتمالها بعد الظهر . ولم يدهشني هذا . فلا ينبغي أن
تركبه يفرط في العمل في هذا الحر . . . وبهذه المناسبة ، ما رأيك
فيه يا مارجريت ؟

— استلطفه

— ان فكرته عن نفسه فكرة رائعة كما تعلمين

— هذا صحيح

فابتسم وقال لها :

— أنت طبعا لا يضيرك هذا . . . ولكني أخشى أن أمك تشعر فيما
يبدو بنفور من نحوه

— لم اكن اعلم انها قابلته ولو مرة واحدة

— وهي فعلا لم تقابله . ولكنها فقط راته من بعيد حينما كان
دارنت يدفعا في المقعد ذي العجلات بين ماشي الحديقة . ولكنها
بالطبع كما تعلمين ذات بدوات خاصة . تكره أو تحب بغير اسباب
وسكت قليلا ثم قال في اسي :

— ولا اظن ان حالتها الصحية آخذة في التحسن . . . ولو كنت
اعرف ما الذي يمكن ان يدخل السرور عليها لما ادخرت في سبيل ذلك
وسعا ولا نفقة . فالواقع يا مارجريت انني بدأت اشعر بالرغبة في
الاستقرار ، لانني جمعت من المال ما اريد وطويت صفحة المغامرات
من سجل حياتي . والبيت هو المكان المناسب لرجل في مثل سني .
فانا الآن في الرابعة والخمسين كما تعلمين . ولكن البيت . . .

وقطع كلامه واتى اليها بنظرة خاطفة ثم قال :

— اظنك تعرفين ماذا اعنى

وردت على نظره بنظرة فهم وعطف سريعة ولم تتكلم . فالوقوف
كله كان يبدو حافلا بالسخرية بحيث يصغر ازاءه كل تعليق . . .
فالمرأة التي تزوجت من رجل كأيها ، لا تكثر فتيتا سواء جاء الى
البيت او غاب عنه الايام والاسابيع . وسواء اخذها معه في اسفاره او

خلفها وراءه . فلا تسأله أين هو ذاهب ولا من أين جاء ، ولا ينهض
الام عذبرا لها في سقوط المبالاة ، ولكن فكرة الام حملت مارجريت
على ان تقول :

– اعتقد ان امي تعاني من الام اكثر بكثير مما نتصور
فاجابها ابوها بحماسة :

– هذا ما كنت ميالا على الدوام الى اعتقاده ، ولكن الطبيب
فرجيسون يؤكد لى دائما انها لا تشكو شيئا . وانما هى اعصابها .
ويؤكد لى أيضا انها لو جمعت امرها وحملت نفسها على مغادرة الفراش
والاختلاط بالناس لتحسنت حالتها تحسنا عظيما . وما كنت لاقول
لك هذا كله لولا ان ملاحظة لك منذ بضعة أيام دلتنى على أنك
ستنتهين الى هذا الرأى بنفسك

– وما القول فى الروماتيزم ؟

– فرجيسون يقول ان هذا كله من تأثير الاعصاب ، ولكن لا تظنى
بالطبع اننى احاول التقليل من آلامها بهذا القول . . . فكل ما هناك
اننى اتمنى لو بذلت مجهودا صادقا للمقاومة . وانا مستعد للتضحية
بأى شيء فى سبيل اذكاء اهتمامها بأى نوع من انواع الهواية أو
التسلية ، وكان هذا هو الدافع الاول لى على اتخاذ بيت فى لندن . . .
واستطرد وهو يضع يده الكبيرة بحنان فائق فوق كتفها :

– لقد بذلت خير ما فى وسعى فى سبيل اقناعها فلم افلح . ولا
ادرى ان كان لك أى تأثير عليها على كل حال أرجو ان تحاولى
انت ايضا . وانت تعلمين طبعاً ماذا اعنى

فهزت رأسها . وعاد الى وجهه الاشرار وهو يقبلها ويرتكها لتنام
ولكنها ظلت تفكر فى امها ، ولم تفهم كيف امكن تلك الام الا تهتم
بذلك الاب . واخذت تنسم فى الهواء رائحة الصابون والسيجار
المعطر التى يتركها ذلك الاب الفخم وراءه حيثما يكون . فهو يتألق
بالنظافة والوسامة والقوة ، حتى انه يبدو ملكا بين سائر من عرفتهم
من الرجال . وخطر لها انه ربما كان فى سنوات كفاحه الاولى شبيها
بلوفل . وانه لو قدر للوفل النجاح لاضفى عليه ذلك بهاء شبيها
ببهاء ايها ورونقه . . .

الفصل الثالث

تحت المطر

انهزم المطر مدرارا في صباح اليوم التالي فكان ذلك مثار ضحك كثير بينها وبين لوفل على مائدة الإفطار . ولما جلسا في قاعة الاستقبال حاولت ان توحى الى نفسها بأنها تشعر بخيبة أمل غير عادية . ونهضت الى المعزف فادت عليه قطعة موسيقية بطيئة الحركة هي سوناتا ضوء القمر ، وجاء هو فوقف معتمدا بمر فقيه على المعزف . وصح عندئذ بينها وبين نفسها وفي هدوء أنها تستلطف هذا الشاب أكثر مما استلظفت أى شاب آخر في حياتها كلها . ولاحظت فوق هذا ان وجوده لا يشعرها بأى توتر عصبى ، بل انها على العكس تحسن العزف تحت نظراته أكثر من مالوف عاداتها . ولما أتمت المقطوعة دارت بسرعة فوق المقعد الدوار ، ورفعت اليه وجهها بتحديقها الصريح

واتجه مجتازا القاعة الى النافذة ، واخذ ينظر الى المطر المنهمر بلا انقطاع . وكان المنظر حينئذ رائعا ، وتربة الأرض والتلال تبدو وكأنها تشرب الماء بشغف . والأشجار المثقلة بشمارها تهتز أعطافها وهى تتقبل منحة السماء ...

وسمعه يقول من غير أن يحول نظره اليها :

— لشد ما أحب المطر !

فقلت على الفور :

— أنا لا أحبه عندما يحول بيننا وبين الخروج

— وهل من الحتم أن يحول بيننا وبين الخروج ؟

وبعد بضع دقائق كانت تواجهه وهى مرتدية معطفها الابيض اللامع الراقى من المطر ، وتقدم اليه مظلة سوداء :

— هذا ماكنت أريد أن أقدم عليه ولكن لم يخطر ببالى أنك تحب السير تحت المطر مثلى ...

وبينما هما يسيران فى هذه الوحدة تحت المطر حدث مرة أو مرتين أنه تناول ذراعها ليعينها . فكان يضغط عليها

وخفت حدة المطر برهة وهما يجتازان منعطف النهر ، ويخوضان أمشاط البرية موغلين نحو تل ستاو الكبير . وتل ستاو يبلغ ارتفاعه نحو ستمائة أو سبعمائة قدم . وإن كان يبدو أعلى من ذلك كثيرا ، عندما ينظر اليه الإنسان من نوافل الدار

وأوحى اليهما تراخى شدة المطر أن يشرعا فى الصعود . ولكن فى منتصف المسافة عاد المطر الى الانهمار بشدة فأسرعا يجريان للاحتماء منه بين مجموعة من أشجار البلوط ثابتة على نتوء فى التل . وقالت له وهى تجذبه من يده :

— أنا أعرف مكان هذه الأشجار جيدا ، وكثيرا ما كنت العب بينها أنا وبومى ونحن طفلان

فسألها متعجبا :

— بومى ؟

— نعم بومى . أنه أخى . واسمه الحقيقى بوم روى . ولكننا كلنا نناديه بومى . وكان منذ نشأته غير قوى البنية ، ولذا الحقه والذى يعمل فى كاليفورنيا حيث المناخ معتدل دافئ . فهو فى سان فرانسيسكو فى الوقت الحاضر . فى السلك القنصلى

— اظنكما كنتما لا تفترقان ؟

— كنا دائما معا . وكان أشقى وقت مر على فى حياتى هو الفترة التى أعقبت رحيله ...

وأسرعت تخترق مسافة بين الأشجار ، ثم أشارت الى جذع شجرة ضخمة رأتها هناك :

— انظر . هاهى ذى الحروف الاولى من اسمينا . نقشناها يوم عيد الميلاد الثامن لبومى بميدية تلقاها هدية فى تلك المناسبة . ولا بد انى كنت يومئذ فى الخامسة من عمري . وتستطيع أن ترى بنفسك كم كنا صغيرين ، حتى أن يديتنا لم تصلا الى هذا الارتفاع

وعلى ارتفاع نحو ياردة واحدة فوق سطح الأرض رأى لوفل أربعة

أخرف كبيرة غير جيدة النقش : ب . ف ، م . ف . ونظر لوفل الى الحروف الاربعة بامعان ثم أخرج بسرعة غريبة مدية من جيبه وسألها باسم :

— هل يجوز لنا ان نضيف الحروف الاولى من اسمينا فى هذا اليوم ، أم أن ذلك يكون امتهانا لقدسية الذكرى ؟ فلننقشهما فوق الحروف السابقة حتى نستطيع أن تحددى مبلغ نمو قامتك منذ ذلك التاريخ ... أأسمحين لى ؟ دعينى أنقش حرفى اسمى نيابة عنك

واحست بسخونة الدماء فى عروق عارضيهما وهى تقول :
— كما تريد !

وأخذت ترقب أصابعه وهى تتحرك فوق جذع الشجرة . وسرعان ما أتم نقش م . ف . ثم تحتها مباشرة ف . ل . ثم قال لها :
— اسمى فيليب . واظن بهذه المناسبة ساناديك فى المستقبل مارجرىث . اليس كذلك ؟

فأجابته على الفور :

— وهو كذلك يا فيليب !

فنظر اليها نظرة ناقبة كأنما اخذ على غرة وقال :

— هيا بنا يامارجرىث . هيا نتسلق التل ، فقد تراخت شدة المطر مرة أخرى ...

وكانت شدة المطر قد تراخت فعلا ولكنه عاد الى اعتف من شدته الاولى قبل أن يصل الى القمة . ومن القمة لم تقع عيناهما على منظر سوى منظر الوادى الممتد ينصب فوقه المطر . وكان برج المراقبة الذى بنى قديما ليكون من علامات الطريق التى تشاهد على مسافة كبيرة جدا من جميع الجهات ، ينهض شامخا فوق رأسيهما كالديديان الاسود

وحديثه عن تاريخ ذلك البرج ، وكيف أن سيذا من رجال القرن الثامن عشر جعل منه مرقبا للنجوم ، لأن ذلك السيد كان سغوفاً بعلم الفلك :

— أن داخله طريف جدا . وهو طبعا داخل حدود ممتلكاتنا وان كنا لا نجنى منه أية فائدة . ولو كنت ادرى سلفا اتنا سنأتى الى

هنا لجئت معى بالفتاح
فأخذ يدور حول البرج كأنه حيوان متأبد . أو هذا على الأقل
ما خطر لها وهى تراه يغوص فى الطين الى عقبه ويواجه المطر
والرياح ، وكأنه لا يحفل بها . وسمعه يغمغم :
- كنت احب ان ارى ماذا يبدو من الداخل
فقلت :

- للأسف لم افكر فى احضار المفتاح
وبعد قليل سمعته يناديها من الجانب الآخر :
- مارجريت ! استطعت ان افتح الباب . فتعالى وانظرى !
فجرت تدور حول البرج ، وبعد لحظة كانا معا داخل البرج المظلم
الذى تفوح منه رائحة الرطوبة وقد اغلق الباب وراءهما لمنع تسرب
المطر . وقالت :

- لم آت الى هنا منذ زمن طويل . انقضت سنوات طويلة منذ
آخر مرة كنت فيها هنا

- مع بومى فيما اظن ؟

- نعم

فواجهها وهو يقون لها :

- وهانئذى الان هنا معى انا

فأجابته ببساطة وهى تسبقه الى الداخل :

- هناك خزانة صغيرة فوق هذه الحجرة كان ذلك المعجوز يجلس
فيها امام منظاره المقرب

- هل كان مسنا ؟

- لعله لم يكن مسنا فى البداية . ولكن هذه الهواية استمرت
زمننا طويلا

- لا بد انه كان انسانا غريب الاطوار !

- نعم وهناك اساطير كثيرة تدور حوله على السنة سكان المنطقة

وصعدا معا السلم العتيق الذى كان ينخره السوس ، الى ان برزا
اخيرا فوق سطح دائرى تغطيه الاقدار والتراب بطبقة كثيفة . وبعد
لحظة صمت قال فيليب :

- لم اعد استطيع ان اطرد من ذهنى صورة هذا الرجل الذى عاش

منذ زمن بعيد ، وهو يتسلق التل في الليالى الصافية التى تسطع فيها
النجوم ، كى ينعم النظر في السماء من وراء منظره المقرب ... ياله
من عمل موحش !

— يقولون أنه لم يكن دائما بمفرده ؟

— حقا ؟

— هناك كما قلت لك أساطير كثيرة تدور حوله وحول حياته .
ويقولون أنه كان من عادته أن يختطف الفتيات الحسان من جميع
القرى المجاورة ويأتى بهن الى هنا في الظلام
— يختطف ... البنات ؟

— نعم . واظنهن كن من فرط الفرع منه ومن الظلام لا يجسرن
على القائه من فوق التل كما كنت حرية أن أفعل لو كنت فى
مكانهن !

وكانت تتكلم بهدوء شديد وبجد شديد . ومع هذا فكان تعليقه
عبارة عن ضحكة حادة ترددت خشونتها فى المكان الساكن ، ثم قال
وهو يتحسس عضلة ذراعها فى الظلام :

— اظنك كنت تفعلينها . واثت قديرة على ذلك :

ومشت خطوات فى أرجاء المكان ولكنها تعثرت بذيل ثوبها الواسع
فتمزقت أجزاء منه . واخذت يضحكان فى الظلام لانها كلما ارادت
تخليص ذيل ثوبها من قدميها تمزقت أجزاء منه . وانحنى هو ليحاول
تحسس الاضرار التى وقعت ، فخيل اليها ان ضجة الرياح والمطر
قد زاد وقعها فجأة على اذنيها !

واثارت حركة يديه فى الظلام التراب الذى تراكم على الارض منذ
سنين فملأت أنفها رائحة غريبة هى رائحة الزمن ، ممزوجة على نحو
ما برائحة الاثم . وكأنما كانت الأعمال الغامضة التى ارتكبت منذ
أكثر من قرن فى هذا المكان عالقة بترابه بل متمزجة بطلاء جدرانه

وبعد قليل عاد الى الحديث عن آلهة البترولية . واخذت تصفى لما
يقول وقد ازدادت حواسها ارهاقا . كأنها استشعرت شيئا من العداء
أو التقابل بين حماسه وبين رائحة التراب المحيط بهما . كان ذلك
التقابل رمز للمعركة الناشبة بين الخير والشر فى العالم . واحست
بنفسها وقد انضمت الى صفه فى تلك المعركة بحماسة

شديدة . وفي الوقت نفسه كانت تحدث نفسها من غير مبالاة ، شأن
فقلها الناضج العملي دائما بأنـه بعد أيام معدودة سيكون قد أتم عمله ،
وأعد آتله الجديدة للمرض على والدها . وبعدئذ سيعود بالطبع
الى برمنجهام

بل انه أعاد على سمعها ما فكرت فيه بالفاظ شفثيه ، فقالت له :
- أتعود الى برمنجهام حتى ولو قرر أبى أن يتولى إنتاج اختراعه
وتمويله نهائيا ؟

- حتى لو حدث هذا . فلا أظن أنى أستطيع أن أستقر بصفة
نهائية فى داركم . اليس كذلك ؟
- لا أظن ذلك ممكنا

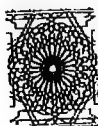
ويظهر أن شيئا ما - أن حقيقة وأن تخيلا - فى لهجتها ونبرة صوتها
دفعه الى أن يسألها :

- أتمنئ لو أننى استطعت البقاء فى بيتكم باستمرار ؟

فأجابته ببطء كأنها تفكر فى الأمر جديا :

- لا أدرى . فمنذ رحل بومى وأنا أشعر بالعزلة الشديدة
والوحشة أحيانا كثيرة . . . ولكنى استمتعت بصداقتنا كثيرا
- وكذلك أنا

وفجأة طوقها بذراعيه القويتين . فقاومت قليلا . ثم أطبقت شفثاه
على شفثيها فشعرت بدفء وفورة شديدين ، الى حسد الألم . ومع
هذا كان كل ما خطر بذهنها أن هذه القبلية مسحت كل الآثام التى
ترين رائحتها على البرج العتيق من حولهما ، حتى لم يعد لبقايا
هذه الآثام أثر



الفصل الرابع

عاصفة

في ليالي الصيف الطويلة التي أعقبت ذلك اليوم المطير ، امسى من عادتها ان تجلس الى النافذة المفتوحة في فاعة الاستقبال ، عندما يكون فيليب ووالدها مسغولين بالكلام والمناقشة حول مشروعاتهما المشتركة . وكانت تلك الامسيات رقيقة الانسام ، رطبة الهواء هادئة . وكانت جميع الروائح الزكية التي تنبعث من اشجار الحديقة المترامية تتوافد الى مكانها من النافذة المفتوحة ، وتمتزج في خياشيمها برائحة الطباقي الذي يتصاعد دخانه من حيث يجلس الرجلان اللذان تحبهما . . .

وكان يشق عليها ان تعرف على سبيل القطع ايها احب اليها . . . ذلك ان حبها لفيليب بدا لبصيرتها الواعية وكأنه قد استشرى في كيانها ، حتى امتص وتمثل وقغذى على كل حب آخر اكنه قلبها لانسان من البشر . . .

كانت سعيدة ضربا من السعادة بلغ حد الروعة . حتى انها كانت تغيب عن الوجدان الواعي بما حولها من تفاصيل الواقع المحسوس . وعلى هامش حلمها الجميل كانت تتردد انغام كوموسيقى مواكب التهليل . . . ولم تكن تلك الانغام الا مقاطع من عبارات الرجلين ترتفع طبقة أو طبقتين فوق المستوى العادى لحديثهما المتصل . فيقول أبوها :

— على رسلك يا لوفل ، يا ولدى . . .

وعندئذ يطنى على صوت ايها قول فيليب في حماسة :

— انا واثق من ذلك يا مستر فرينشام . واثق تمام الثقة !

وكانت تعلم انها تريده اكثر مما خيل اليها . او اعتقدت انها يمكن ان تريد شيئا او انسانا في يوم من الايام ! وكانت حرية ان تذهب الى

أبيها وتنفض بين يديه الحقيقة المجردة ، كعادتها منذ كانت في كل شأن من شئونها ، لولا أن فيليب كان له في ذلك رأى آخر وكان موقفه غريبا في نظرها : لأنها كانت تتوقع منه أن يبدى من الحماسة واللهفة على اتمام هذا الامر بينهما ، مثل الذى يبدى من الحماسة واللهفة بسبب آلهة التى تدار بالبتروى . ولكنه لم يكن متحمسا لهفان . بل كان هادئا وحذرا الى حد كان يسخطها ويثير غضبها . وكانت حجته التى أدلى بها :

— انى أرى على العموم انه من دواعى الحكمة ألا نخبر والدك بشيء فى الوقت الحاضر على الأقل ولا نخبر أحدا على كل حال بما يبيننا . فان أسرتك ليس من المرجح أن تطير فرحا بمثل هذا النبأ . فليس هناك ما يدعو أذن لاستعجال ظهور العراقيل وهبوب الإعاصير — ولكن أبى يحبك حبا عظيما . أنا أعلم هذا !

— نعم يحبنى حب الحامى لمن يلوذ بكنفه وبرعاه . ولكنه ليس حب الرجل لشاب يرتضيه زوجا لابنته

— ولكنه سيحبك هذا النوع من الحب ويرى فيك زوجا لائقا بابنته اذا علم اننى أريدك لى زوجا

فهز رأسه وقال :

— كلما عظم حبه وأعزاه لك يا مارجريت كان ذلك ادعى لكراهته أن يراك تلقين نفسك هذرا على عنق مخترع مفلس . . .

— ولكنك لن تظل مفلسا على الدوام . اليس كذلك ؟

— أنا واثق اننى لن أكون مفلسا على الدوام . ولكن ليس بين يدي الآن ما أعز به موقفى ومطلبى . وهذا هو السبب فى أنى أريد أن أنتظر الى أن اتم آلتى ، وأعرض عليه نموذجا . وعندئذ لابد أن يدرك حقيقة مواهبى . لن يكون له من ذلك مناص



وذات صباح من أيام شهر يولية ، اذ هى منهكة فى مراقبة فيليب وهو يعمل تحت العريشة ، نادتها أمها من شرفتها . فصعدت إليها وتربت من مكانها مقعدا مصنوعا من القش وقالت وهى تجلس إليها :

— يبدو عليك تحسن ظاهر يا أمى

— حقا ؟

— نعم . انت أحسن بكثير . وأنا واثقة أنك استغدت كثيرا من

الخروج الى الهواء الطلق في الشرفة اليوم . ولينك تنهضين فتغادرين
الفراش كل صباح كما فعلت اليوم !

— اوه !

— انا وبابا نعتقد كلانا ...

وتوقفت عند هذا الحد لأنها أحست بالتسرع وبأنها أساءت
معالجة الموضوع ، وانها أندفعت في مغامرة أمها تلبية لرغبة أيها بغير
كياسة . ولكن ذهنها في الواقع لم يسعفها كثيرا لأنها لم تكن في هذه
الايام تفكر في أمها اطلاقا . بل ولا في أيها ايضا . لأن صورة فيليب
هى التى كانت مسيطرة دون سواها على تفكيرها كله ... صورة
فيليب وهو واقف امام مشروع اختراعه ، وقد شمر قميصه وأشعة
الشمس تنعكس على عضلاته القوية الداكنة

وتكلمت أمها في موضوعات شتى فترة من الوقت ثم قالت :

— انا اعرف جيدا يامارجريت وجهة نظرك انت وأبيك بشأنى

والآن اما وقد رأيت انت من اللائق ان تقدمى الى النصح ، فلعلك
تبدلين استعدادا لتحمل النصح الذى ارى لزاما على ان أسديه اليك

ولم تجب مارجريت . لان ذهنها لم يسعفها بأى معنى واضح
محدد لذلك الكلام . فكل ما في ذهنها من الوضوح منصب على تلك
الصورة الفريدة التى لا شغل لها بصورة سواها

واستطردت أمها تقول بهدوء :

— ونصيحتى هى ... دعى مغالبة ذلك الرجل لوفل !

واستيقظ ذهنها دفعة واحدة :

— مغالبة ؟ ... هل قلت مغالبة ؟

— هذا ما قلته

— لم تكن تتغازل !

— اذن ماذا كنتم تصنعان حتى الآن ؟

لا جواب !

— انى أحذرك يامارجريت من هذا الرجل . فانا انهم الرجال ،

وان كنت قد لا تصدقين ذلك . فهذا الرجل لا يعنيه شيء في الدنيا
سوى طموحه ومطامعه

— ليس هذا صحيحا فانت لا تعرفينه . وانا لا استطيع ان احتمل

سماعك تتحدثين عنه على هذه الصورة ! وانا لا ابالى بما تقولين ...
فهذا لن يقدم ولن يؤخر !

- آه ... هذا ما قدرته . اذن فكل شيء متفق عليه بينكما ؟

- نعم !

- اتظنين انك ستتزوجينه ؟

- بل أعلم انى سأتزوجه !

- اتتوهمين ان والدك سيوافق ؟

- ولماذا لا بواقى ؟

- اعقدين حقا انه سيوافق ؟

- انا ... لا ادرى ...

- فى استطاعتك ان تعرفى الجواب اذا سألته صراحة

- كان فى نيى ان أسأله رابه . وكان ذلك فى ثبة فيليب ايضا .

ولكننا فضلنا ان ننتظر الى ان ... الى ان ...

- الى ان يتأكد من انه سوف لا يطرد من البيت قبل الفراغ من
انساء آله الجديدة ... نعم هذا شيء مفهوم . فالآلة الجديدة لها
الاعتبار الاول عنده ، لا انت ... ولكنى على كل حال قد جذرتك ،
وهذا كل ما أستطيع أن أصنعه . والان يحسن أن تبحتى عن مينشن
وتطلبى اليه ان يأتى لدفع مقعدى

وكان البيت خاليا لأن والدها كان قد ذهب الى شلتنهام لقضاء
سحابة النهار هناك بسبب بعض أعماله . وقد تولى بنفسه قيادة
العربة الصغيرة كما يحلو له دائما ان يصنع فى الايام الساطعة الشمس
وفيليب كان تحت العريشة ... فشعرت فجأة بتعاسة شديدة .
واستولى عليها احساس بأن السعادة الرائعة الصافية التى تمتعت
بها فى الماضى القريب لا يمكن ان تدوم ، وليس مقدرا لها ان تدمر .
وخيل اليها ان اشعة الشمس نفسها قد غشيتها كآبة معتمة ، فاتجهت
الى نافذة حجرة الاستقبال وأطلت على الحديقة . وعندئذ تبينت ان
هذه العمة ليست وهما . لأن سحابة من ضباب خفيف لبنى اللون
كانت قد غشيت صفحة السماء كلها . وسكن الهواء وازدادت الرطوبة
والحرارة ، مما ينذر بهبوب عاصفة من عواصف الصيف
وغادرت البيت الى الحديقة واتجهت نحو العريشة ، فرأته حيث

تركته منصرفا الى العمل . وهز لها رأسه وأبتسم ، ولكنه ما كان
يبتعد ولو لدقيقة واحدة عن ذلك الهيكل الغريب الشكل من التروس
والأسطوانات . وقفرت الى ذهنها في التو واللحظة كلمات أمها اللاذعة
« انها الآلة الجديدة . هي وحدها لها المقام الاول من اهتمامه .
لا انت ، فهل لهذه الكلمة نصيب من الحقيقة ؟ »
واحست انها لن تصمد للصدمة لو أن لهذه الكلمة ظلا من الحقيقة
وطغى عليها طوفان من الجزع جعلها تصرخ هاتفة باسمه ثم تنفجر
ناشجة بالبكاء . وعندئذ كف عن العمل وقال :
— ماذا جرى يا مارجريت بحق السماء ؟
قبل أن يتسنى لها أن تجيب استطرد يقول :
— لا يحق لك أن تبكى . لانك في الواقع أقبلت في لحظة نجاحي .
بعد ساعتين اثنتين سيكون كل شيء على اتم أهبة كي يراه والدك .
انه سيعود الليلة . اليس كذلك ؟
فاجابته ببلاهة :
— بلى سيعود الليلة . . . وأمي قد اكتشفت أمرنا يا فيليب
— يا الهى . اتعنين هذا حقا ؟ وهل قامت بسبب ذلك مشادة ؟
— كلا . كل ما هناك انها حذرتنى منك . حذرتنى من الثقة بك ،
ولكنى اثق بك فعلا . يجب ان اثق بك . اليس كذلك ؟
— طبعاً . طبعاً . ولكن أمك . . . تعترض طبعاً ؟
— نعم . فهي تكرهك . ولعلها تكرهنى انا ايضا . . . فلا اظنها
متعلقة بأحد حقا في الدنيا كلها اللهم الا بومى . . . ولكنى لا ابالى . . .
لا ابالى ما يمكن أن يحدث ما دمتنا . . .
وقدمت شفيتها الى شفتيه وتعلقت بمنقه بحرارة ، واسلمت نفسها
لاحضانه . فأشعلت جذوتها جذوته ، فأخذ يقبلها الى أن شهقت
وقد أفرخ روعها وقالت له بصوت مضطرب من الانفعال :
— فيليب . فيليب . أنا لا أريد ان أضيع وقتك الذى يجب ان
تصرفه فى اتمام عملك . أريدك أن تغدو رجلا عظيما . . . أريدك أن
تكون طموحا . . . ولست ابالى كم من الزمن تقضيه بعيدا عنى فى
صنع آلاتك . . .
فحملق فى وجهها متعجبا من قولها ، ولكنها استطردت :

سنكون سعيدين جدا... ستكون أنت سعيدا بالآتاك وأنا سعيدة
بأطفالى . أريد حفنة كاملة من الاطفال ... أنا أعلم أننى لا ينبغي
ان اقول شيئا كهذا . ولكن لا حيلة لى فى ذلك . لا أستطيع ان أمنع
نفسى من مصارحتك بما فى نفسى ... ولكنى لا ينبغي ان أضيع
وقتك ... وعندما يعود أبى الى البيت الليلة يا فيليب ، هل تأذن
لى ان أخبره بأمرنا ؟
- الليلة ؟

- نعم أود ان افاتحه الليلة . فامى لم تخبره بما تعرفه بعد .
ولكنها قد تخبره . وأنا لا أحب ان يصل النبأ من أحد قبل
أن نفاتحه نحن

- ولكنى يامارجريت أفضل ان ننتظر حتى الغد . فالالة كما ترى
قد نجحت نجاحا عظيما . وأنا واثق أنه بعد ان يراها سيكون أكثر
استعدادا لسماع ما نريد ان نقوله له
- انى على كل حال أفضل ان أخبره الليلة . أرجوك ان تدعى
أخبره الليلة

- أرجو الا تفعلنى ذلك . فهو خطأ كبير !

- هل تدعى بأن تدعى أخبره غدا ؟

- سنخبره كلانا غدا ان أحببت ، بمجرد مشاهدته للآلة ؛
الآلة ... الآلة ... الآلة

- وهو كذلك اذن . والان سأتركك لتعمل فى هدوء

ومرت الساعتان دون أن يفرغ من عمله . وفى موعد الغداء لم
يظهر له أثر . وجلست تنتظره وقتا طويلا . ولما يئست من حضوره
أسرعت تعدو نحو العريشة كى تأتى به فقرأت على وجهه أن شيئا
ما ليس على ما يرام

وقال لها أن عقبة صغيرة قد برزت فى الطريق فجأة . وأكد لها
هوان شأنها . ترس صغير كسر فى آخر لحظة وسيقضى فترة بعد
الظهر بطولها فى صنع ترس آخر . وأنه لا يستطيع إزاء ذلك أن يقتطع
وقتا للغداء

ولما ألحت عليه أن يتغدى قال انه لا يجد شهية للطعام . فان
شاءت فلها ان تبعث اليه مع مينشن بشطيرة وزجاجة جمعة

وعندما حان وقت تناول الشاي كانت صفحة السماء قد ازدادت
 تليدا بالفيوم . وبدأت مهمة الرعد تتواكب قادمة من المشرق .
 فتمنت على الله أن يكون والدها قد بدأ رحلة العودة من شلتهم .
 لأنها تعرف الحصان الذي يجر العربية الصغيره ، وتعلم أنه يهيج وتثور
 اعصابه حينما يشعر باقتراب الزوابع وقد يجمع
 وانقبض صدرها وعاودها الشعور بالكوارث . وخيل اليها كأنها
 تمشي بمفردها في بطن واد طويل معتد . ثم رأت فجأة الجبال على
 الجانبين تتهاوى ببطء لتتقضى فوقها
 وتناولت الشاي في حجرة الاستقبال . واخبرها مينشن ان امها
 اوت الى فراشها معلنة انها اسوا حالا مما كانت . وعلق مينشن على
 ذلك بقوله :

— انه الغلال الجديد مرة أخرى يا آنسة مارجریت . ملاحظتى
 لا تخيب

وحل وقت العشاء . ولم يعد والدها ، ولم يفرغ فيليب من عمله
 واحست انها لاتتحمل طاقة الذهاب الى العريشة مرة أخرى فارسلت
 مينشن الى فيليب تخبره بتأخير موعد العشاء الى حين عودة والدها
 وعاد اليها مينشن بالرد :

— مستر لوفل يقول انه سعيد جدا يا آنسة بهذه الفسحة من
 الوقت .. سعيد جدا بهذه الفسحة من الوقت .. مع آله ..

— اما زال المطر بنهمر يا مينشن ؟

— قطرات كبيرة تسقط بين الحين والحين يا آنسة ... ولكن
 الليث سرعان ما ينهمر بعد قليل بشدة ... بل أتوقع ان تكون
 العاصفة بالغة العنف يا آنسة

وفي هذه اللحظة ومض برق شديد فاخترق نوره الستائر . ثم
 اعقبته انفجارات هائلة من الرعد القاصف . فاجفلت . لكن خوفها
 لم يكن على نفسها بل على أبيها . وانصرف ذهنها ايضا على الفور
 الى فيليب فالحصان سريع الهياج في هذا الجو ...

وفجأة ، وسط هدير موجة أخرى من الرعد رأت الباب ينفرج
 عن وجه مينشن الاحمر المتهلل . وقرات في عينيه ان شيئا ما قد
 حدث . ومن الغريب انها لم تفكر في تلك اللحظة الا في البيت فخطر

لها أن جانيا من ابنته الخارجية نزلت به صاعقة من البرق
وسمعت مينشن يناديها عبر الحجرة بهمس أجش :
— مس مارجريت .. مس ما رجريت . لقد عاد السيد ...
ولكنه مريض جدا... وقد حملناه الى قاعة البلياردو ... الاتذهبين
اليه ؟



الفصل الخامس

الصدمة

كان والدها مستلقيا فوق أريكة وقد تصلبت ساقاه ، وتدلى ذراعه الى الارض . وكان مينشن وأحد البستانيين العاملين في الحدائق المحيطة بالدار قد حملاه الى قاعة البلياردو ، لانها أقرب الحجرات الى الباب ...

والظاهر انه دخل بعريته الى فناء البيت ، ثم سلم الحصان والعربة الى احد عمال الاسطبلات ، ثم اسرع الخطو تحت وابل المطر الى مدخل المطبخ . وهناك رأى مينشن وأصدر اليه بضعة اوامر في لهجة حادة . وكان ذلك أمرا غير مألوف اطلاقا وقد دهش له مينشن دهشة عظيمة ...

وأسرع فريتشام بعد ذلك مخترقا الدهليز المؤدى الى الجزء الرئيسى من بناء الدار . وهناك بالقرب من قاعة البلياردو سقط على الارض ، وقد أصابته نوبة من نوع ما ...

كل هذا أخبرها به مينشن وهو يلهث . وقد وقفت شاخصة العينين الى ذلك الوجه الاحمر المتقلص الذى لم يعد الا ظلا مشوهها للوجه الذى طالما أحبته ... ولم تستطع أن تصرخ . واستولى على ذهنها نوع من الصفاء البارد كصفاء الثلوج المتجمدة . فخطر في ذهنها على الفور خاطر وصاحت :

— يجب أن يذهب أحد لاحضار الدكتور فرجيسون فوراً
وكان البستاني قد ذهب لاحضار الطبيب بالفعل . أخبرها مينشن بذلك ولكنه في الوقت نفسه قال أيضا أن الطبيب ربما لم يتمكن من الحضور فوراً بسبب العاصفة . فقالت مارجريت :
— من المستحسن أن نتركه راقدا هنا الى أن يحضر الطبيب

— نعم يامس مارجريت . و . . وهل . . هل اخبر السيدة ؟
فأجابته بهدوء تام :

— كلا . ليس الان . لان ابلاغها النبأ لن نجنى منه الا زيادة
المصاعب فلننتظر الى ان يحضر الدكتور فرجيسون أولا . واعطني
قليلا من البراندى . . . ثم اذهب الى العريشة الملحقة بحظيرة الالبان
واطلب من مستر لوفل ان يأتى الى هنا فوراً !

وخيل اليها ان ساعات طويلة قد انقضت قبل حضور فيليب .
وكانت العاصفة قد وصلت الى اشدّها . فلما دخل رات وجهه ملطخا
بالزيت والمطر . وأشارت اليه اشارة خاطفة كي يلزم الصمت
وبدا عليه لأول وهلة انه غير مبال لتجاوز عتبة الباب . ولكنها
استدعته وهمست قائلة :

— ابى مريض جدا فيما اظن يا فيليب ، لقد أصيب بنوبة . وقد
بعثنا في طلب الطبيب ولكن العاصفة ربما عاقته عن الحضور في الحال
فهل تعرف شيئا في أمور التطبيب ؟

فhez رأسه وحملق في شبه فرع الى الجسد الملقى على الاركة وتم
يقبل شيئا ، فقالت مارجريت :

— لا نأس . ابق معى على كل حال الى ان يحضر فرجيسون
وأشارت له الى مقعد في الناحية الاخرى من الاركة . ورغم
هدوئها الغريب شعرت بخفقة اشفاق عليه ، لان المفاجأة هزت أعصابه
فليست له قوتها في مثل هذه المواقف !

ولما استطاع أخيرا أن يقوى على الكلام قال متلعثما :

— كيف حدث هذا ؟

فأخبرته ثم جلسا معا في صمت تام

وانقضت ساعة كاملة الى ان حضر فرجيسون أخيرا وكان قد
ركب اميالا طويلة تحت وابل المطر . فجعلت قطرات الماء تتساقط
منه وهو واقف أمام الاركة التي يرقد عليها المريض . وفرجيسون
طبيب الاسرة العجوز منذ سنوات طويلة ، وهو الذي أشرف على ولادة
مارجريت ويومى ولدا كان يهمن بهما اهتماما ابويا يكاد يصل الى
رعاية كهوتية . وقد بادر مينشن بقوله :

— جئنى حالا بكوب من الويسكى

ثم التفت الى مارجريت وقال لها :
- اين امك ؟

فاجبتها مارجريت بحدة واضحة :

- انها في الطابق العلوى . في حجرتها . وقد رأينا . او على الاقل
رأيت انا انه لا جدوى من اخبارها في هذه المرحلة على الاقل قبل
حضورك

- آه . نعم . ، ولكن يجب أن نخبرها يا مارجريت . اخبرها
فورا . اذهبي الان واخبرها ربثمالقى نظرة على أليك . وسيعاوننى
مينشن وهذا الشاب (وأوما برأسه الى جهة لوفل في حمله الى
فراشه بعد ذلك

وصعدت مارجريت الى الحجرة المضاءة بالشموع والتي تبدو
دائما رغم الالفة الطويلة مكتظة بالسائير والابسطة والطنافس المعلقة
وكانت والدتها مستيقظة . فقالت لها بغير مقدمات لانها لاتملك القدرة
على التلطف في البلاغ :

- ابي مريض يا أمى . وفرجيسون يريد منك أن تريحه فورا . ولذا
يجب أن تنهضى الان . وسأتولى مساعدتك في ذلك
وكان هدوء امها يضارع هدوءها . ولكنهما من نوعين مختلفين .
فكان كل ما قالته الام :

- يستحسن أن يتولى مينشن دفع مقعدى كالعادة !

فاجبتها مارجريت بحدة واضحة :

- لايمكنك الآن الاستعانة بمينشن لانه مشغول بمعاونة فرجيسون
وتلبية أوامره . وأستطيع انا ان ادفع مقعدك

- وهل تعرفين كيف تحفظين توازن المقعد ذى العجلات عند
النزول على السلم ؟

- لم أجرب من قبل . ولكنى سأحاول

وقبل أن تبدأ المحاولة فعلا حضر مينشن وعرض خدماته قائلا :

- لقد حملنا السيد الى الطابق العلوى حيث حجرته . ويود
الدكتور ان يتحدث اليك في الطابق الاسفل في قاعة البلياردو يا مس
مارجريت

فتركت امها مع مينشن ونزلت الى قاعة البلياردو ، فوجدت

فرجيسون يغلّق حقيبته الطبية ، ولكنه عندما رآها تدخل صب لها
ولنفسه قدحين كبيرين من الويسكى وأمرها قائلاً :

— اشربى هذا جرعة واحدة ثم اشربى قدحا آخر بعده فانت
الشخص الوحيد الذى يتعين عليه أن يتحمل كل هذا العبء فيما
أرى

واستطرد بين جرعات كبيرة من الشراب يقول :
— إن أخفى عليك شيئاً . فالحالة بكل صراحة خطيرة . فمُنذ
شهرين جاءنى أبوك وأخبرنى أنه يشعر بالامغربة في رأسه . ففحصته
فحصاً دقيقاً ثم قلت له « يا فريشام . لابد لك أن تطلع عن التدخين
ومن تعاطى الاشربة الكحولية ، وإن تعيش حياة هادئة كل الهدوء
في المستقبل »

— وماذا كان جوابه ؟

— اخذ يسب ويلعن في أول الامر ورفض الاذعان ، ولكنى الحقت
عليه الى ان حملته على التعهد بالاقلاع نهائياً عن الطبايق والخمر ،
ولكنه لم ينجز وعده . وكنت أتوقع منه ذلك . لانه رحل الى لندن
حيث قضى اسبوع اليوبيل الملكى . وهناك طبعاً كان يدخل
السيجار ويشرب الخمر كل ليلة . . . ثم جاءت ضعتاً على ابالة
رحلته اليوم هائداً من شلتهام في عربة مفتوحة وسط أسوأ عاصفة
عرفناها منذ سنوات . وهذه هى النتيجة !

وكانت مارجريت تصغى لما يقوله الطبيب العجوز وهى واقفة
وظهرها الى مكان المدفأة الخالى من النيران فى هذا الفصل من السنة ،
وهى ترشف الويسكى بطريقة آلية . وأساريرها هادئة كل الهدوء .
فلما فرغ الطبيب من كلامه سألته :

— أعتقد أنه سيتحسن ؟

فقال لها :

— أرجوا هذا !

ولم تفتها الملاحظة ، فقالت :

— ترجو هذا ولكنك لا تعتقد أنه سيحدث ؟

فترك سؤالها بغير جواب . واستمر في اعداد حقيبته . قائلاً
— لابد لى من العودة الى البيت كى اعد بعض العقاقير التى سيكون

بحاجة اليها . وسأعود بعد ذلك مباشرة . في نحو الساعة الحادية عشرة ، اذا كانت العاصفة لم تعرقل المسير . ثم انه ليس امامنا ما نصنعه في الوقت الحاضر حتى الساعة الحادية عشرة . فلتخلد والدتك الى شيء من الراحة ان شئت . اما أنت فيجب أن ترسلي في استدعاء أخيك واختك حالا . وذلك على سبيل الاحتياط ... وبهذه المناسبة من هذا الشاب الذي كان هنا عند قدومي أول مرة ؟

— اسمه لوفل

— ضيف فيما اعتقد ؟

— نعم !

ولم يعقب على ذلك بشيء

وبعد انصرافه صعدت مارجریت الى الطابق العلوى ودخلت حجرة ايها فوجدت امها جالسة في مقعدها المتحرك بقرب فراشه . وكان لم يزل غائب عن صوابه وليس هناك شيء يمكن أن يصنع سوى الانتظار

وتوقف المطر عن الهطول ، وهبت على حجرة النوم رياح ندية دفعت بالستائر فانكشفت عن صفحة سماء زرقاء داكنة ولكنها حافلة بالنجوم . وأشارت امها في ضيق الى الستائر التي يعبث بها الهواء فقد كانت تكره النوافذ المفتوحة وتسمى كل نسمة رخاء ريحا صريرا

ونفضت مارجریت الى النافذة فأغلقتها وهى تفكر في روعة السير بين الاشجار في ليلة صافية ندية الهواء كهذه الليلة ، سماؤها حافلة بالنجوم والهلال تحيط به هالة ، ومن الارض التى اثار كرامنها الفيث ، يرتفع عبر الاعشاب مختلطا بالازهار التى تتناوح بها اغصان الشجر ولم تكن الصورة خالية من فيليب . فلاشك انه سيجد في تلك النزهة الليلة راحة من عناء التوتر العصبى الذى أصابه على اثر الحادث .. فلماذا لاتحمل البرقيات وتصحبه الى القرية ؟ ولابد من ايقاظ الموظفين كى يرسلوا البرقيات . وهؤلاء الموظفون سيتولون اذاعة الخبر على جميع الناس في المنطقة بمجرد طلوع النهار . وسيهز الناس رءوسهم ويقول القائل منهم :

— بالفرينشام المسكين ! .. أهكذا فجأة ؟ فى الاسبوع الماضى فقط

شاهدته يمر وهو يقود العربة بنفسه وتبدو عليه الصحة الكاملة !!
ونظرت الى أمها . فوجدتها تنظر اليها . فسألتها :

- أتشعرين بتعب يا أمي ؟

- اشتدت آلامى ... وأظن هذا من اثر الصدمة . ماذا قال
فرجيسون ؟

- لم يقل سوى انه لا حيلة لنا سوى الانتظار . وانه سسيعود
فى الساعة الحادية عشرة . وقال ايضا انه ينصحك بالايواء الى فراشك
ان شئت ذلك

- أظن ان هذا يستحسن ... ولكنى سوف لا أخلع ثيابى ...
قولى لمينشن أن يأتى ليدفع مقعدى

وذهبت تبحث عنه فوجدته محتقن الوجه ، لاهث الانفاس من
تأثير المجهود والمفاجأة . وجاء فدفع المقعد وانصرف بالسيدة المريضة
كما تعود ان يفعل منذ سنوات

وقالت مارجرىت لامها وهى منصرفة :

- سادعوك يا أماء اذا دعت الحالة لذلك !

وخلت لنفسها برهة . وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بثلاثين
دقيقة . ولن يلبث فيليب وفرجيسون ان يعودا . وكان فيليب
هو الذى عاد أولا فتركت له فسحة من الوقت لتناول العشاء ثم
طلبت من مينش أن يستدعيه . لانها قدرت انه سيشعر بالوحشة
وهو بمفرده فى الطابق السفلى . ثم لعل الخروج فى الهواء الطلق
برهة سيفيده ...

وطرق الباب برفق ثم فتحه ، فلاحظت مرة أخرى توتر أعصابه
بصورة غريبة ، ووقف عند عتبة الباب الى ان ذهبت اليه وقالت
له :

- يا فيليب . افضل ان تبقى معى الى ان يعود فرجيسون . ولن
يطول الانتظار ... فهل لديك مانع ؟

وجلسا على الجانبين المتقابلين للفراش واخذا يتحدثان همسا ..
ونظرت هى الى أبيها وهو راقد فأدركت انها لم تفتن من قبل الى
مبلغ ضخامته ، وجعلها ذلك تفكر فى أمها القصيرة المحيلة . فلاشك
ان الناس كانوا يضحكون دائما من منظر الاثنين معا . ولكن لابد أن

هذا كان منذ زمن بعيد . لانهما لم يخرججا الى المجتمعات معا منذ سنوات كثيرة ... ان راسه وهو على الوسادة يبدو اضخم بكثير من المعتاد . وعروق جبهته وعارضيه زرقاء شديدة الزرقة كأنها توشك أن تنفجر

وخيل اليها أن الهواء في الحجرة غير كاف . وكان أبوها على عكس أمها يحب الهواء الطلق دائما . فقالت همسا :

— افتح النافذة يا فيليب . فان والدتي جعلتنا نغلقها عندما كانت هنا ، ولكنى أعتقد أننا يجب أن نبقىها مفتوحة

فنهض وفتح النافذة ثم جلس . ودقت الساعة الضخمة دقة الربع بعد الحادية عشرة . فلا شك أن فرجيسون سوف يعود بسرعة ... ان السكون سائد تماما . وسوف يصل الى سمعها حتما صوت الحصان وهو قادم على الطريق ... يبدو لها أنه قد مرت ساعات وهي في الانتظار . ومرت سنوات منذ الليلة الماضية ، حينما سارت هي وفيليب معا على شاطئ النهر ، وكانت الحياة تبتسم لهما . وكل شيء يبدو في عينيها رائعا . وهمست فجأة :

— فيليب !

فرفع اليها عينين تنطقان بالفرع . وقالت :

— فيليب ... هل حقا تحبني ؟

— احبك ؟ نعم بالطبع ... طبعا احبك !

فهزت رأسها وابتسمت وتركت الصمت يخيم عليهما مرة أخرى اذا لم يحضر فرجيسون بعد قليل فلا بد أن ترسل أحد البستانيين للبحث عنه على الطريق ...

ولكن فجأة ، وبينما هي ترتب في ذهنها ما تصنعه في هذا الصدد ، شعرت بحركة خفيفة تصدر عن الفراش . وأدركت أن عيني أييها رايلهما ذلك التحديق الزجاجي المتجه الى السقف ، فهما الآن تصوبان نظرة ثابتة الى فيليب . وهمست تقول له :

— انظر .. انظر ! انه يفيق !

ثم استطردت تقول بكل لطف :

— كل شيء على مايرام يا أبى ... نحن هنا ... مارجريت ...
مستر لوفل ...

واكفهر وجه فيليب ، وجلس معقود اللسان ساكنا كالتمثال .
وتعجبت لماذا لم يقل شيئا ملطفا لخاطر الاب . وعلمت ذلك بأنه
لم يزل مهتز الاعصاب من وقع الحادث

وبعد ذلك حدث صراع لم يكن أمامها هي وفيليب الا أن يشاهداه
من غير أن تكون لهما حيلة فيه . لقد كان أبوها يكافح في سبيل
الانطق ، وأصابه تشبث بمفرش السرير في جنون ، وكأنه يصارع
عدوا خفيا أخذ بمجامع لسانه وحنجرتة . ولم تسفر تلك المعركة
المستبشرة الا عن كلمة واحدة مفهومة المقاطع . وهذه الكلمة هي
« لوفل » !

وهمست مارجريت وهي نتحنى فوقه :

— ها هو ذا هنا يا أبى !

ولكن الصراع كان قد انتهى ، واستكان الرجل للرقاد وقد
تلاحت أنفاسه التي يجد صعوبة شديدة في استجماعها ، فقالت :
— يا فيليب . انى أشعر انه من الواجب استدعاء امى . . . نعم
انه لا يبدو أسوأ حالا مما كان . . . ولكن مع هذا اذهب وناد مينشن
وأسرع الى الباب بيد أنها استوقفتها قائلة :

— كلا . كلا . . . لا تذهب الان

ثم انحنت مرة أخرى فوق الفراش . وقفزت بعدئذ واقفة حتى
أوشكت أن تسقط المقعد على الأرض ، وصاحت بصوت أجش :
— اعتقد أن شيئا قد حدث . . . لا اظنه يتنفس . . . كان يبدو
عليه انه يرتجف . . . فيليب . . . تستطيع ان تعرف . . . ؟

ووقف الاثنان أمام الفراش وتطلعا الى الرجل الراقد هناك .
وكان يبدو هادئا . وخيل الى مارجريت انه عوفي مما كان يشعر به .
وأن الساعات التي مرت بها أخيرا لم تكن سوى حلم مزعج . وأنه
ينام نوما عاديا

ولكن فيليب هز رأسه وقال :

— اعتقد انه . . . هل ابقى هنا الى أن تستدعى أنت أحدا ؟

فقالت بحزم

— كلا . سابقى أنا واذهب انت وائتنى بمينشن

وانهار تجلدها عندما صارت وحدها في الحجرة . ولكنها استردت
هدوءها كاملا عندما عاد فيليب ومعه مينشن

الفصل السادس

الحقيقة

رحل فيليب الى برمنجهام في صباح اليوم التالي . تولى توصيله في العربة الصغيرة أحد السياس الى محطة السكة الحديد . واثناء الطريق التقت العربة بعربة كبيرة مفتوحة كانت تقل ليلى قادمة الى الدار . فحدق كل منهما في الآخر تحديقاً شديداً . . .

لقد سافر لمدة اسبوع الى أن تنتهى مراسم الجنازة . وقد رأت مارجريت انه على صواب في هذا القرار . فذلك انسب تصرف في هذا الظرف

واقامت الجنازة في كنيسة كولد مارستون التي تكاد تقع في ظل تل ستار . ولم يحضر الجنازة أحد سوى أفراد الاسرة وخدمها . ولعل مراسم الجنازة كانت لا تخلو في جملتها من سخريه خفيفة . لان كيم فرينشام كان في شبابه من أشد المتحمسين لداروين وهاكسلي عالمي الاحياء المشهورين بعداء الكنيسة لنظريتهما في النشوء والتطور . وكان « غنوطسيا » أى أنه يؤمن بوجود الله عموماً من غير طريق كتب الوحي والانبياء . وبطبيعة الحال كان شديد الاغفال للأشكال والماراسم الكهنوتية والكنسية

وحضر من لندن لشهود الجنازة المحامي باسلو ، الذى رأى من الحكمة فتح الوصية بعد الانتهاء من طقوس الدفن مباشرة

ونصت الوصية على هبة ضخمة للارملة التى آلت اليها أيضاً الدار والاراضى المحيطة بها . ونصت كذلك على هبات صغيرة لجهات البر وللخدم وما الى ذلك . اما الباقي كله فمقسم بين الاولاد الثلاثة . ولما كان يومى بالغا سن الرشد فله أن يتسلم نصيبه فى التركة فوراً . أما مارجريت فعليها أن تنتظر مدة وجيزة الى أن

تبلغ رشدھا

ولا شك أن فرينشام حين كتب هذه الوصية كان يعتقد أن أمواله المنقولة من أسهم وسندات وما إلى ذلك طائلة القيمة ، ولكنه في السنوات الأخيرة منى بخسائر كبيرة نتيجة مغامرات جريئة في عالم المال . فترك وراءه ديونا كبيرة تستغرق تصفيتها وقتا طويلا فكانت الارملة وحدها هي التي ورثت الجانب الأكبر من الثروة

وانتحي المحامي بمارجريت جانبا وافهمها أن الموقف يحتاج منها لشجاعة كبيرة . وربما كان من المستحسن بيع هاى ستاو لمجاوبة الديون

— هذا على الأقل اقتراح يجب مناقشته مع مستر بوميروى عندما يعود إلى الوطن قريبا



واصبح الجو — بعد العاصفة — في غابة الاعتدال فبدت الحدائق المحيطة بالدار في أوج فتنها . وتمنت مارجريت من أعماق قلبها ألا يحتاج الأمر إلى بيع هاى ستاو . ولكنها في الوقت نفسه كانت تشعر بأنه لو اقتضى الأمر بيع هاى ستاو فسيكون افتقادها وحنينها إلى الحدائق المترامية المحيطة بالدار أكثر من حنينها وافتقادها للبناء نفسه . وكانت تعلم أن هذا هو احساس بومى أيضا . وتساءلت فيما بينها وبين نفسها كيف عسى بومى أن يبدو لعيونها بعد غيبته في أمريكا وقد طالت ثلاث سنوات . كم سيسعدا أن يكون بومى معها في البيت تسابق العهد . ولا سيما إذا شعر بالمودة نحو فيليب ! ولكنه طبعا سيحب فيليب . لأنه من العسير على أى انسان ألا يحب فيليب

ومع ذلك كانت كراهة أمها له لم تتزعزع بمرور الوقت . ولم يعد اسمه يذكر فيما بينهما كثيرا . ولكن في أصيل الليلة التي كانت تتوقع وصوله فيها من برمنجهام قالت لها أمها فجأة :

— قال لى دارنت أن لوفل سيعود الليلة إلى هنا

— هذا صحيح

— اظنك مسرورة لهذا ؟

— نعم

- وما سبب عودته ؟
— لقد ترك هنا آلتة وأدواته ورسومه
— آه ! ألم يكن فى الامكان ارسال هذا كله اليه ؟
— بلى . ولكن هناك موضوعات يجب ان نتحدث فيها نحن الاثنان
— انه طبعا يعرف اننا لا نستطيع الآن ان نستمر فى تنفيذ اى
اتفاق تم بينه وبين والدك ؟
— اعتقد انه يدرك هذا
— اننى مازلت عاجزة عن تصور سبب وجيه لحضوره اطلاقا
— قلت لك ان بيننا امورا يجب التحدث فيها
— امور تتعلق بآلتة الجديدة . هه ؟
— نعم . . . وامور اخرى ايضا !
— وعلى الاخص الامور الاخرى . اليس كذلك ؟
فقالت مارجريت بصراحتها المعهودة :
— بلى !
— وهل مازلت بعد كل هذا الذى حدث مصممة على الزواج
منه ؟
— لست ارى اى وجه كى يحول هذا الذى حدث بينى وبين
هذا الزواج !
ورأت عندئذ امها تبسم نصف ابتسامة وتتحسس صفحة
وجهها بمنديل مبلل بماء الكولونيا . وكانت جميع نوافذ الحجرة
مغلقة اغلاقا محكما . والهواء الساكن الراكد مثل برواتح العطور
المختلفة ، التى تختلط فيها رائحة الكافور برائحة الياسمين وغيره
من الازهار العاطرة . وكانت مارجريت تكره هذا الجو الثقيل على
الصدر . وكذلك كيم كان يكرهه جدا
وتمنت مارجريت ان تدخل ليلى عليهما لأن ذلك من شأنه ان
يضع حدا للمناقشة . فهى لا تشعر بالرغبة فى مناقشة امر فيليب
مع اى انسان . ولاسيما مع امها . ولكن امها استأنفت فجأة
استئتما من زاوية اخرى :
— هل اخبرك الدكتور فرجيسون بامارجريت بسبب فاة ابيك ؟
— قال لى انه شلل فى المخ

- وما تظنين أنه كان السبب في ذلك ؟ مثل ؟
- قال الدكتور فرجيسون أن السبب ربما كان قلقه الشديد ومحاولته اليائسة للوصول الى البيت بسرعة أثناء العاصفة
- أنه القلق أو الانزعاج على كل حال . هل أقر لك بهذا ؟
- نعم
- إذن أستطيع ان أخبرك عن انزعاج أعظم بكثير مما تتصورين .
- وقد حدث له هذا الانزعاج قبل وصوله الى البيت مباشرة
- ومالت الام الى الامام في مقعدها ولبثت صامتة لحظة ولكن
- مارجريت لم تتكلم . وعندئذ قالت الام :
- لقد رأى صديقك لوفل
- لوفل ؟ ... وكادت عيناها العسليتان تقفزان من محجرهما
- وهي تسأل :
- رآه ؟ ماذا ... ماذا تعنين بذلك ؟
- أعني بذلك انهما تبادلوا الحديث . وكنت جالسة امام نافذتي
- فاستطعت ان اسمع حديثهما رغم ضجة المطر والرعد . فلى اذنان
- حادثان كما تعلمين ، ولكن كلامهما كان بصوت عال جدا
- فهل لم يخبرك لوفل بذلك الحديث ولم يذكر لك شيئا عنه ؟
- وسكنت مارجريت قلم تجب . فقالت الام :
- لقد قدرت انه لن يخبرك بأمر هذا الحديث . لانى لم أتوقع
- منه أن يكون صريحا معك ، كصراحتك معه !
- دعى هذه المسألة الآن يا أمى . ولكن خبرينى ماذا حدث بينهما ؟
- سأخبرك بكل ما أعرفه وهو ليس بالشئ الكثير : كان والدك
- عائدا بسرعة الى البيت عن طريق باب المطبخ ، وكان لوفل معه ،
- فلايد أنهما تقابلا قبل هذه اللحظة . ولم أسمع بوضوح ماذا كانا
- يقولان . ولكن كان من الجلى أنهما يتشاحنان . وكان من الجلى
- ايضا أن موضوع المشاحنة هو أنت
- أنا ؟
- هل هذا يدهشك حقا ؟
- خبرينى .. خبرينى أى نوع من التشاحن كان هذا ؟ هل كانا
- يتجادلان مجرد مجادلة ؟

— لا أستطيع أن أجزم بهذا . وعلى كل حال ينبغي أن أكون
منصفة لصديقك . اليس كذلك ؟ ولكن إذا كنت تريد أن تعرفي
القصة كلها فلماذا لا تسألين لوفل نفسه عما حدث فعلا ؟

— سأسأله . سأسأله . وأنا أعلم أنه سيفسر لي كل شيء

— بلا شك . ولكن بعد ذلك . عندما يكون قد فسر لك كل شيء
فلك أيضا أن تسألي نفسك ان كنت تصدقين هذا التفسير

وقبضت على قبعتها ومعطفها وخرجت تجرى من البيت الى
الحدائق لأنها أحست باحتياجها الشديد للهرب الى الهواء الطلق .
ونادتها ليلي من احدى النوافذ وسألتها أين هي ذاهبة . فاجابها
مارجريت :

— لا أدري !

فاجابتها ليلي بشيطنة :

— اظنك ذاهبة لمقابلة صاحبك مستر لوفل على المحطة ؟

فراقت لها هذه الفكرة وقررت ان تذهب لمقابلته على المحطة .
ثم تسأله عن ذلك الموضوع بغير لف ولا دوران

وانتظرته على رصيف المحطة . وكان من المولم لها جدا ان يذكرها
منظره بأبيها . فهو يشبهه جدا في البنية والسمحة . وفيه تفتحه
للحياة . ولم يحمل معه الا حقيبة صغيرة . فلما اقترحت عليه
العودة الى البيت سرا على الاقدام بطريق مختصرة تخترق الحقول
وافقر على الفور

وتحدث في بداية الامر في موضوعات شتى . موضوعات عامة
مثل برمنجهام وحالة الجو وآخر الانباء الواردة من جنوب افريقيا .
وكأنها كانت تختبره كغريب قبل أن ترفع الحجب بينهما . واحست
انه يتهيأ قليلا . اما هي فكانت أكثر من متهيبة مما ستقدم عليه .
وكادت نفسها تراودها الا تفتحه . وان تترك الامور كما هي يكتنفها
الغموض . ولكن ما ان اختفت عن انظارهما أضواء التربة واوغلا
بين الحقول حتى أسرع يضمها اليه ويقلبها . فكان ذلك هو الحافز
القوى لها على المصارحة . فقالت له وهي تدفعه عنها :

— يا فيليب . انى اريد أن ألقى عليك بضعة اسئلة . فهل
تجيبينى عنها ؟

- فقال لها على الفور :
- طبعاً . سلى أى سؤال شئت ولكن قبلينى أولاً !
- فأحسنت أن مرجه مصطنع وقالت له :
- كلا كلا ... أريد يا فيليب أن تخبرنى ماذا حدث بينك وبين أبى ليلة وفاته ؟
- وشعرت به فى الظلام وقد اخذ بالسؤال وأبتعد عنها . فعلمت بغريزتها أن أمها صدقتها القول . ولكنها مع ذلك لبثت تنتظر رده على سؤالها بهدوء . وأخيراً صاح متعجباً :
- يا الهى ! ماذا تعنين بهذا السؤال ؟
- لا أعنى شيئاً . كل ما هنالك أنى أطلب منك أن تذكر لى الحقيقة كاملة . لقد التقيت أنت وأبى ليلة وفاته . اليس كذلك ؟
- وحدث بينكم جدل أو نقاش بشأنى . وأريد منك أن تخبرنى عن هذا النقاش
- فتبدلت حالته فجأة . وفارقه المرح وظهر عليه اليأس . وقبض على ذراعها وصاح قائلاً :
- مارجريت ! لم يكن الذنب ذنبى يا مارجريت ... أقسم لك على ذلك ... لم أكن أعلم أنه غليل بهذه الصورة !
- فنظرت فى الظلام الى ملامح وجهه المعتمة وقالت :
- أنا لا أهتمك بشيء ...
- والحقيقة أن صوته كانت فيه نغمة لم تستطع احتمالها . ولهذا حرصت على أن تكون هادئة كل الهدوء :
- كل ما أريده أن تخبرنى فى بساطة وهدوء بكل ما حدث !
- أقسم لك أمام الله يا مارجريت أنه لم تكن لدى فكرة ...
- أعلم هذا . ولكن خبرنى بما حدث
- انى ... أشعر بخزى شديد ... جلدًا
- تكلم !
- وتكلم بلهجة عرجاء متعثرة فقال لها ان إياها دخل عليه العريشة وسط العاصفة وسأله يلا مقدمات : « ماذا بحق الشيطان تقصد من تمسحك بابنتى ؟ » وكان واضحاً ان هناك من حذره بشأننا .
- فقلت له حقيقة علاقتنا بخلافيرها . فنثار ناثره وسبنى ونعتنى

فيما نعتنى به بأنى انتهازى ... فأخرجنى ذلك عن طورى . وكانت
أعصابى مرهقة جدا بعد أن ظللت ست ساعات أحاول عينا إصلاح
كسر فى الآلة . فضلا عن جو العاصفة المشحون بالكهرباء . آه لو
كنت أعلم أنه مريض !
— اكس . أرجوك أن تكول

وظل يصرخ بأعلى صوته أننى وعد . وأظنى أسأت استغلال كرم
ضيافته وما الى ذلك . وعندئذ ... عندئذ قلت له اذهب الى
الشیطان . اعترف بهذا . والحقیقة اننى لم أكن أعلم ...
— نعم نعم . أعرف ذلك . ولكن أذكر لى بقية ما حدث
— بعد ذلك ... ضربنى . بأقصى قوته ... و ... فضربت !
— أنت ضربته ؟

— وكيف كان يمكنى أن أعلم يا مارجریت ؟ انك كان يبدو ضخما
قويا . حتى اننى كنت اعتقد فى أعماق نفسى أنه اذا حدث بيننا
شجار سيفلبنى بقوته الفائقة ... ومع ذلك بمجرد أن لکمته .
ولم تكن اللمعة قوية جدا ادركت أن به شيئا . فأخذ يترنج خارجا
تحت المطر ، واتجه الى البيت . فتبعته لاني قدرت أنه ربما أغمر
عليه ، واحتاج لمساعدة . وظل طول الطريق الى المطبخ يصيح
ويسبى . وربما أكون أجبت به بمثل صياحه وسبابه ... لا أدري
ولا أذكر . لان حالتي كانت فى منتهى الفظاعة . ولما دخل البيت
جریت عائدا الى العريشة . هذه هى الحقيقة . الحقيقة الكاملة
بعلافيها . ولا يمكنك أن تتصورى شعورى بعد ذلك عندما بعثت
فى طلبى ، ووجدته راقدا هناك فى قلعة البلياردو
وأحسنت أنه يوشك أن ينهار . فسكت ولم تتكلم فاستطرد
بحرارة :

— يا مارجریت . اتركهينى لهذا السبب ؟ وكيف كنت أستطيع
أن أعلم أنه مريض ؟ ان والدتك تكرهنى كما أعلم . وفرجيسون
يرتاب فى امرى . ولكن لابد أنك أنت تثقين بى . يجب . يجب !

فقلت وهى تشيح بوجهها عنه :

— فلنحاول أن نعالج الامر بهدوء يا فيليب . وانت طبعا لم تكن
تدرى أن الذى مريض . هذا شيء مفروغ منه . وفرجيسون

اخبرنى فعلا ان وفاته كانت منووعة بصعده فجائية فى اى وقت ،
وان اى سبب كان كافيا لذلك

- اى سبب ... ولكنك تعتقد اننى كنت السبب ؟

- على هذا الاساس اعتقد انك كنت السبب . اليس تدري ذلك ؟
سألته السؤال بهدوء تام ، ولكن الموقف كان شديد الوطأة عليه ،
فقال وهو يلهث :

- يا الهى ! هل يمكن ان تصفى عني ؟

واجابته بهدونها الراسخ :

- لقد صفحت عنك بالفعل يا فيليب . غفرت لك هذا الذى
صنعت به

- اذن هناك شىء آخر ؟

- نعم . انا لا ادرى لماذا لم تخبرنى بكل هذا بمجرد حدوثه !

وساد الصمت فترة . ثم قال :

كان ينبغى ان اخبرك . اعلم هذا . ولكنى خشيت ان اسبب
لك الالم

- ولكنه الم اقل بكثير من الملى لانك لم تصارحنى

- ظننت انك لن تغفر لى لو علمت

- كان ينبغى ان تجازف !

- هذا صحيح

- لقد اخطأت يا فيليب اذ لم تخبرنى ...

ولم يعد صوتها هادئا . بل كان يختلج بالانفعال :

- ... كان من الخطا ان تجلس الى جوار فراشه فى ساعته

الاخيرة ، بعد هذا الذى حدث بينكما . وانت تذكر كيف نطق

باسمك وهو يلفظ نفسه الاخير ؟ كان لا يزال غاضبا عليك عندئذ . .

وكان ينبغى الا تكون هناك

- غننتك تريدنى ان ابقى معك

- وهل كنت ظننى اريدك ان تبقى معى لو اننى كنت اعلم الحقيقة ؟

- كان ذلك جينا منى . اعترف بهذا يا مارجريت . لم توانى

الشجاعة على اخبارك بعد الذى حدث !

- او لم توانك الثقة بى ؟

” كلا كلا ليس هذا هو السبب
فسكتت واستمرت فى السير غير مكتثرة بانكاره . فقال بعد
قليل :
- وكيف اكتشفت المسألة يا مارجريت ؟
- سمعت أمى جانباً من المشاجرة . لأنها كانت عند نافذة الحجرة
الغربية
- أستطيع أن أتخيل ما قالت لك عنى
فشعرت على الفور ولأول مرة فى حياتها فيما تذكر بشيء يجذبها
الى الدفاع عن أمها فقالت :
- لقد كانت منصفة جداً فى الواقع . ثم انها لو لم تسمع جانباً
مما حدث عفواً لما عرفت أنا الحقيقة اطلاقاً . اليس كذلك ؟
فأجابها بشراسة :
- أنك ما زلت توبخيننى يا مارجريت ؛ أنك تكرهيننى بسبب ما
فرط منى ! انى اسمع هذا فى نبرة صوتك وفى كلماتك . ولا أظن
أنك سامحتنى ولا تستطيعين أن تسامحينى
وازعجها قوله . لأنه كل من بقى لها فى الحياة وحبها له هو السند
الوحيد الباقى لها . فتعلقت به فجأة وضمته بشدة اليها ، وراحت
تقبله بحماسة . كانت تريده . وتحن اليه . ولكن جوع جسدها
طغى عليه جوع آخر هو جوع روحها . فقالت وهى تلهث مرتجفة
بين ذراعيه :
- تزوجنى يربك . تزوجنى بسرعة يا فيليب . وبعد ذلك نستطيع
أن نلقى بهذا كله وراء ظهورنا . وسأصفح وأنسى هذا كله عندما
يضمننا بيت واحد ، وتصبح أنت زوجى العزيز ! تزوجنى بسرعة
يا فيليب . فانا لا أطيق أن أعيش فى هذا البيت العتيق الآن .
وأريدك أكثر مما أردت فى أى يوم مضى يا فيليب ...
فعانقتها بخنان وهيام . وقد الهبت عواطفه حلاوة مفانها
الجسدية ، ورائحة شعرها العطرة ، وبضاضة شعفتيها الحاريتين :
- نعم نعم ، سريعاً ، بأسرع ما نستطيع . ولكن لا مال عندى
كما تعلمين
- انا لا أبالى بهذا . سأعمل . سيعمل كلانا بكل جد . وسأعيش
معك فى أحقر كوخ فى برمنجهام وأحس أننى فى الجنة !

— لن يطول بك هذا الاحساس . وسرعان ماكتشفين أن الافلاس
ابعد ما يكون عن حياة النعيم التي تتخيلونها
— اذن دعنى اكتشف ذلك بنفسى . ولا بد انى ساكتشفه على
كل حال لانه لن يكون لى مال حتى ولو بقيت فى الدار ولم أتزوج
فبدا عليه الاهتمام الشديد وهو يقول متعجبا :
— اوه ؟

فسردت على مسامعه دقائق الموقف بعد فتح الوصية ثم قالت :
— فنحن اذن على قدم المساواة الآن . وينبى أن نواجه الواقع .
وانا واثقة انك ستفقدو شهرا فى يوم من الايام . واثقة بهذا نقتك
انت به . واريد أن أعينك وأعمل لك . فخلدنى . خدنى معك حيث
شئت . وفورا ...
— انت رائعة !

وكان يعنى بهذا دفء شفتيها وضوء القمر الذى ينعكس على
الدموع المترققة فى عينيها وهما يستأنفان المسير
وكانت امها جالسة تقرا فى حجرتها عندما صعدت اليها لتحيتها
بحبة المساء . وكان كل ما قالته لها أمها :
— اذن فانت قد اثبتت به ثانية يا مارجرى ؟

— نعم

— هل سيقوم طويلا ؟

— بضعة أيام . ريشما يحزم أمتعته

— وهل أخبرك بالحقيقة ؟

— نعم

— وهل طابق كلامه كلامى ؟

— نعم

— اوه ؟ هل اعترف بكل شىء اذن ؟ وماذا فعلت انت ؟

— صفحت منه !

الفصل السابع

اكتشاف

لم تر مارجریت فیلیپ كثيرا جدا كما هو منتظر في الايام القليلة التالية . لانه كان يقضى الوقت في العريشة مشغولا بحزم آتیه وأدواته . وهى أيضا كان لديها عمل كثير جدا يشغل معظم وقتها . وكان لغز شخصية والدها الحقيقية لم يزل مستوليا عليها . فأغراها ذلك بالاقدم على فحص طويل دقيق بين أكداس كثيرة من الخطابات والاوراق التى خلفها وراءه

كانت مارجریت تخصص فترات الصباح لهذا البحث . ولم تخبر والدها بشئ عنه لان الفكرة في ذلك كانت فكرتها وحدها . ولم يسفر البحث في أول صباح عن شئ سوى الكشف عن وسائل أبيها المضطربة المتسمة بالفوضى في ادارة أعماله . وفي الصباح الثانى وقعت يدها على آثار عهد أقدم من ذلك فتكشفت لها دلائل اسرافه واندفاعاته المتنوعة ...

أما اليوم الثالث فاكشفت فيه خطابات كثيرة من نساء ... وكان عدد هذه الخطابات عشرات بل مئات مكدسة على غير نظام في قاع درج من أدراج مكتب قديم له . ولم تقدم على قراءة هذه الخطابات في مبدأ الامر لان مطالعة هذه الخطابات جعلتها تجفل من التطفل على شئون تبدو عليها الصبغة الشخصية والخصوصية بصورة واضحة ثم قرأت خطابا أو خطابين منها ولم تستطع أن تمضى في القراءة أكثر من هذا ... لان السطور بدت لها غير معقولة وتفوق مضموناتها أشد تخيلات اسرافا . ومع هذا لم يكن هناك مجال للخطأ في التأويل فتواريخ الخطابات واختام البريد على مظروفاتها كانت دليلا دامغا على صدقها وواقعيتها

ولم تدرك المغزى الذى تنطوى عليه تلك الخطابات فى البداية . فلما ادركته تأملت لذلك ألما فظيحا . ألما شديداً كالمها عندما اكتشفت سر فيليب . بيد أن ألما فى هذه المرة أعمق وأكثر حدة حتى لقد شعرت بغثيان ، فخرجت الى الحديقة وهامت على وجهها بين خمائلها نصف ساعة وهى تحاول أن ترتب ذهنها ، وتستوعب أطراف المسألة حتى لقد كادت فى النهاية تشك فى وجودها نفسه لفرط نفورها من اليقين بواقع هذه الامور

وخرجت بالنتيجة التالية : أنه لم يكن هناك وقت تعبه ذاكرتها منذ ولادتها أو قبل ذلك الى زمن قريب جدا ، لم يكن فيه لوالدها عشيق . وظل الحال على هذه الوتيرة تلك السنوات . بل لعل الحال كان كذلك منذ ولادة أخيها الأكبر بومى . فكانت هناك دائما امرأة فى مكان ما على صلة بأبيها

وكثير من هذه الخطابات خطابات حب وغزل . وكثير منها أيضا لم يكن سوى مذكرات قصيرة لتحديد مواعيد الالتقاء أو أمكنته وما الى ذلك . ولكن جميع الخطابات تقريبا كانت تحوى من التفاصيل مالا يدع مجالا للشك فى نوع هذه العلاقات الغرامية . .

واحدى هؤلاء النساء كانت تعيش فى بروكسل وتكتب رسائلها بلغة فرنسية عامية مبتذلة . وامرأة غيرها كانت لندنية لم تجد مارجريت بدا من الاعتراف بما فى رسائلها من دلائل على ذكائها وقوة شخصيتها . وكان هناك شئ مشترك بين جميع الرسائل التى كتبتها جميع النساء ، وهذا الشئ هو هيامهن بأبيها هياما يبدو قويا صادقا لاغش فيه

وانتضى الغداء وهى فى حالة شبيهة بالحلم . وكان فيليب وليل يتحدثان معظم الوقت على المائدة . وبدا واضحا أن ليلي مشغولة به وتحاول محاولة اليائس أن تتظاهر بالاهتمام بأشد مشكلات الهندسة الميكانيكية تعقيدا وغموضا . . وبعد انتهاء الغداء عادت مارجريت الى المكتب . فقد كان عليها ان تصل الى قرار فى هذه الخطابات ، وماذا تصنع بها

هل تجمع شتات هذه الخطابات فى عناية وتخفيها فى مكان ما الى أن تعمل الصدفة عملها فى يوم من الايام فتعثر بها يد شخص آخر

بعد سنوات طويلة ؟

كان أكثر ميلها الى القضاء على تلك الخطابات قضاء تاما . فهي قد استخلصت منها الحقيقة عن أبيها ، وليس من المحتمل ان تنساها ما عاشت . نعم يجب أن تعدلها اعداما !

وأخذت تجمع الخطابات بالعشرات فى كل مرة وتلقى بها الى نيران المدفأة . واستغرق احراقها وقتا طويلا . وكانت الحرارة فى ذلك اليوم الحار من شهر يونية خانقة . وعندئذ ، وهى مستغرقة فى عملية الاحراق انفتح باب المكتب ودخلت أمها يدفع مقعدها المتحرك مينشن !

وكانت لحظة عصبية ..

ووقفت مارجريت وظهرها الى المكتب المفتوح تحملق ببلاهة عبر الحجرة نحو الباب . وابتسمت مسر فرينشام ابتسامة صغيرة غامضة وأومأت برأسها تصرف مينشن . فلما انصرف قالت :

— اذن فأنت تقومين باحراقها يا مارجريت ؟

وبعد برهة صمت قالت مارجريت :

— انى أتخلص من بعض خطابات أبى القديمة . فهناك خطابات كثيرة جدا . . . ولا أظن أنها تستحق مثونة الاحتفاظ بها

— أوه . كلا . كلا بالتأكيد . واعتقد أنك تصرفت بحكمة . كل الحكمة . ولكنك نسيت مبلغ ما أتمتع به من دقة الملاحظة . فليس لدى ما أفعله طول النهار سوى الجلوس فى مقعد والاخذ الى التفكير والمطالعة والمراقبة . وقد عرفت طول الوقت ماذا تصنعين . لقد كنت هنا أمس صباحا . أليس كذلك يا مارجريت ؟

— هذا صحيح

— والصباح الذى قبله أيضا ؟

— نعم

— لقد أدركت ماذا وراء ذلك . فلما أبصرت الدخان يتصاعد من المدخنة فى هذا الحر الشديد علمت أن تقديرى كان صائبا . . نعم يا مارجريت . أنت حكيمة جدا وكثوم . لقد أحسنت صنعا

— أماه . . لا أدري ماذا تقصدين بهذا الكلام بالضبط !

— ولكنى واثقة كل الثقة أنك تدريين ماذا أقصد . ان المحامى

باسلو كان يريد أن يقتحم هذه الحجرة ويجرد محتوياتها ويأخذ جميع ما فيها من الخطابات • ولكنى أخبرته أنه من الخير أن يتركك تعشرين عليها

— ولكنى مازلت أجهل •• لست واثقة ••

— تعنين أنك لست واثقة من أننى أعرف • اعلمى اذن اننى أعرف مع أنى أوكد لك أنى لم أقرأ هذه الخطابات • لاننى كنت دائما أقتصر الى الاكتراث بأمرها ••

— أماه • ليتك تكلميننى بوضوح

— ربما كلمتك بوضوح وصراحة • أما الآن فاجلسى وافرغى من احراقها كلها • وقربى مقعدى من المدفأة • فانى أريد أن أدقى نفسى أيضا بنار هذه الرسائل !

وأطاعتها مارجرىت • لانها وجدت راحة فى انهاء هذا الموقف العصيب والانصراف الى عمل ما • وركعت على الارض ودفعت ببقية الرسائل حفنة حفنة تدسها فى النار وهى صامتة

— والآن يا مارجرىت ما رأيك فى أببك ؟

وظل السؤال معلقا فى الصمت حتى ثقل به هواء الحجرة الحار ، واختلط برائحة العطر الذى تتضمن به أمها ، وبشعاع الشمس الغاربة ، ورماد الورق المتطاير ، حتى أوشك الغثيان والاعغماء أن يستوليا عليها • ولاول مرة فى حياتها روادها الشعور بأن الحياة فى جملتها لا تستحق عناء العيش على الاطلاق

وأخيرا أجابتها بقولها :

— لا أدرى

— لقد كانت صدمة لك بلا شك

فرفعت عينيها الى أمها وقد ارتسمت فيهما الحيرة وقالت :

— أماه • انى أشعر بأعياء كلما فكرت فى هذا • هل هذا صحيح

حقا ؟ يخيّل الى دائما أننى فى حلم ، وأن ما عرفته غير صحيح !

— كلا يا ابنتى • لست حاملة • وانما أنت قد استيقظت لتوك

من حلم طويل !

— أنا ؟

— انك تبدئين اليوم باكتشاف الكنه الحقيقى للحياة !

— ان كان كنهها أشياء من هذا القبيل • فخير منها الموت • انى
اذن قمينة أن أفضل الموت

— تفضليته على مواجهة الحقيقة ؟

— أماه لا طاقة لى على الجدل الآن • ولكنى أشعر أنه اذا كانت
تلك الحقيقة شاقة على الآن ، فكيف تراها كانت بالنسبة لك طوال
تلك السنوات •• طوال ذلك الماضى ؟

— لا تهتمى بهذا • فقد تعودته • وعشرون عاما يا ابنتى زمن كاف
كى يالف الانسان أيما شيء

— عشرين عاما ؟ منذ ولادتي ؟

— بل وقبل هذا فيما أعلم • كان داء ملازماً له

— داء ؟

— نعم •• داء العجز عن الاقلاع عن مخادعة النساء وهو داء
تنتشر أعراضه بين الرجال كما تعلمين • ولتدرك طبيعاً لا تعلمين
فانك قد بدأت اليوم فقط تتعلمين •• نعم يا ابنتى • كان أبوك رجلاً
لطيفاً فاتنا حنوناً سخياً • كانت فيه كل الصفات التى يمكن أن
يتمناها كل انسان •• ما عدا الزوجة !

— أمى •• لابد أن الامر كان شاقاً عليك جداً • كان فظيلاً !

— نعم • فى البداية فقط • ولكن بعد المرة الاولى لم يعد للامر
أهمية • فالرجل لا يستطيع أن يؤذيك من هذا الطريق الا مرة واحدة
فانك لا تستطيعين أن تغفري له ذلك حتى وان قلت أنك قد غفرت له
وتتوقعين دائماً بينك وبين نفسك ، ان يحدث منه هذا الشيء نفسه
مرة فى كل وقت • وحينما يحدث — وهو عادة يحدث — تجددين أنك
غير مكترثة لحدوثه ••

— وفى حالته هو •• يتكرر الحدوث ؟

— كثيراً جداً • حتى أننى لم أعد أحصى الاحداث !

— ولكن ما أظن هذا ! لابد أن الناس عرفوا ••

— أوه • كانوا يعرفون • كانت علاقاته حديث لندن كلها • ولكنه
كان يبنى نفسه بانى ربما كنت لا أعرف • ولا سيما حين لا أنير
ضجة • فقد كان يكره الضجة • ويكره الشجار والخصام وكل ماهو
من هذا القبيل • لقد كانت افكاره بسيطة جداً • بصورة عجيبة •

حتى أنه عندما تحدث منذ مدة قريبة عن الإقامة هنا بقية حياته ،
خامره الاعتقاد بأننى سأرحب به أخيرا وأنا مفتوحة الذراعين ! لقد
كان رجلا لطيفا • لطيفا جدا !

— كان هذا هو اعتقادى فيه دائما !

— نعم • وكان اعتقادك هذا يريحه • أما أنا فلم يكن اعتقادى
فيه يريحه ، ولذا كان ينأى بنفسه دائما عني ، ويستريح لابتعادى
المستمر عن طريقه • وكان مرضى طبعا حافزا للناس على زيادة عطفهم
عليه •••

— أمى • لا أستطيع أن أتحمل سماع كل هذا

— ولكنك يجب أن تسمعى كل هذا •• لأنها الحقيقة • انى
أريدك أن تعرفى طرفا من الاشياء التى يستطيع رجل من طرازه أن
يغدم عليها من غير أن يشعر بأنه يقترف خطأ خاصا • كان والدك
عاجزا عن الاحساس بالخطأ ، كان يعتبر نفسه دائما كالتلميذ الشقى
الذى ينبغى أن يفتقر الجميع له هفواته • وفعلا كان الجميع يفتقرون
له هفواته • ولعلمهم كانوا يظنونونه يفعل ماهو طبيعى أن يفعله رجل
مكبى بالاغلال الى زوجة غليظة مثلى • ولم يعلموا أنني بعد أول مرة
وبعد أول اكتشاف •• حدث لى انهيار عصبى تركنى مقعدة •• على
هذا النحو

— أماء !

— وكان أبوك شديد القلق على • وشديد الحدة أيضا •• لان
الرجل المسكين لم يستطع أن يدرك ما هو السبب الذى أدى بى الى
هذا

وبعد قليل سألتها مارجريت :

— وهل بومى يعرف كل هذا؟

— نعم • انه يعرف • ولكنى لم اخبره

— ماذا ترى كان شعوره ؟

— لابد أن شعوره كان كشعورى •• وهو أن الزواج على الجملة
شئ فظيع وحقير • واولئك النساء اللواتى عاشرهن أبوك كن أسعد
وأحظى بالحياة منى • لانهن حصلن منه على كل شئ فيما عدا الوفاء
وهو شئ لم يكن يتظرنه منه • وهى حياة لا بأس بها بالنسبة لامرأة

يمكن أن ترتضيها . أما من هن مثلي ومثلك . .
 وقطعت عبارتها وسكنت قليلا ثم قالت :
 - لا تزوجي يا مارجريت . . لانك تنتظرين ممن يتزوجك أكثر
 مما يستطيع أن يمنحك اياه
 - ولكن هناك بالتأكيد رجال . فريق من الرجال على الاقل في
 طبيعتهم صدق ؟
 - أظنك تفكرين في فيليب ؟
 - نعم أفكر فيه !
 ووضت عيناها وهي تقول ذلك
 - . . . ألسنت متفقه معي في الرأي يا أماء ؟ أنا أعلم أنك لا تحبينه
 ولكن ألا تظنين أنه طراز الرجل الذي يخلص للمرأة التي يتزوجها ؟
 - ليس ان تزوجك أنت !
 - لماذا ؟
 - لانه لا يجبك يا مارجريت انه مفتون بك فقط . أولا لانك
 بذلت قصارى جهدك لتحمليه على ذلك . وثانيا لانه لم يجد شيئا
 اخر يشغل به فراغه في المساء وهو هنا . ان اهتمامه الحقيقي موجه
 في المقام الاول الى عمله . كل طاقته مصروفة في هذا الاتجاه . كل
 قوته . أما ما تبقى منه وهو ضعفه ، فذلك ما قد يمنحك أو يمنح
 سواك اياه . انه يذكرني بأبيك من وجوه كثيرة
 - نعم نعم من بعض الوجوه . أعلم هذا ولكنه لا يشبهه في هذا
 بالذات . انه مخلص . أنا أعلم أنه مخلص وأثق به كل الثقة ! اني
 أومن به كما أومن بأى شيء في الدنيا !
 وترنحت واقفة على قدميها ، وهي تشعر أن الدنيا كلها قد اختلطت
 معاملها أمام وجدانها ، فلم تبق لها الا الثقة بفيليب . انها يجب أن
 تثق به . يجب والا فلن تجد شيئا تثق به في الدنيا !
 وغمغمت قائلة لأمها . وهي تلمس طريقها الى الباب :
 - اني أشعر بالاعياء . وشيئا خرج يا أمي لالتمس الهواء . وسأرسل
 اليك مينشن



وزارت فيليب تلك الليلة . . . وهي الليلة الاخيرة قبل رحيله . لانه

كان مزمعا أن يسافر فى قطار مثير • وكان من المفهوم انهما سيتبادلان
الرسائل كثيرا وسيلتقيان ثانية بمجرد اعداد العدة لذلك

ولم تكن لديه خطط معينة سوى أنه قد يمكث فى برمنجهام •
فكل شىء يتوقف على عنوره على شخص يمكن أن يهتم بالته الجديدة
وهى كذلك لم يكن لديها أى تفكير محدد • فلم يكن فى وسعها سوى
الانتظار الى أن تستقر أمور تركة أبيها • فان آل اليها شىء ولو قليل
من المال مثل ايراد سنوى يبلغ مائة أو مائتى جنيه ، فسيكون ذلك
كافيا لتمكينها من الزواج من فيليب ومساعدته فى اختراعه • أما اذا
لم يؤل اليها شىء على الإطلاق فانهما سوف يتزوجان ويخاطران
بمواجهة الحياة فى شجاعة فهذا ما كانت هى مستعدة له ، موطنه
النفس عليه • وظلا فى الليل يتجولان بين خمائل الحديقة التى يفوح
عطر أزاهيرها فيعبق الهواء الندى • وجعل يقبلها • يلثم فاهها
وشعرها ووجنتيها وجيدها • ولكنها كانت تريد أن تتكلم • تريد أن
تتكلم عن المستقبل ، وتحديثه عن تلك الاشياء التى يمكن أن تزيدهما
قربا وتزيد صلتهم توشجا • ولكنه ظل يقبلها • فتركته غير مبالية
مايصنع • وغفرت له ذلك فى سر ، لان الرجال كما تعلم هكذا خلقوا
ولكنها تريد أن تتكلم وهو يريد أن يقبل بلا انقطاع • ولتعارض
رغبتها ظل يتهمها بأنها لا تحبه

— انك غريبة الاطوار الليلة يامارجريت • لست كمادوك • انت
الليلة باردة كالثلج ••

فقال له بهدوء وبساطة وبلا انفعال :

— انى أحبك أكثر مما مضى يا فيليب !

ولكنها كانت تعلم أنه لم يفهمها • وأخيرا تركته يفعل ما يشاء
ومع هذا ظل يشكو من برودها ••

وكانت متعبة عندما عادت الى البيت • فصعدت على الفور الى حجرة
أما لتحييها تحية المساء • ولم يكن الوقت متاخرا • فلم يزل بينهما
وبين منتصف الليل نصف ساعة ، ولكن أمها كانت قد نامت فوقفت
ترقبها وهى راقدة • ولححت مارجريت صورة الجمال الذى ذوى •
وأحسنت بالجريمة الفظيعة الغريبة التى اقترفتها أبوها حين حاول
ذلك الجمال الى مرارة • وانحنيت فقبلت فى أسى عينيها النائمتين ، ثم

هبطت السلم مرة أخرى على نية التحدث الى فيليب بعض الوقت .
 فهى ليلته الاخيرة . وربما ليلته الاخيرة اطلاقا فى هذا البيت
 ولما وصلت الى البهو رأته باب حجرة الجلوس نصف مفتوح .
 ومن داخلها جاءها صوت ضحك ولفظ حديث . . صوت فيليب
 المتحمس الاجش وصوت ليلي الطفلى الحاد . وكان فيليب قد قال لها
 شيئا أضحكها ، فأجابته بشيء من نفس الاسلوب
 وكانت مارجرىت وهى تعبر البهو تراهما بوضوح من خلال فرجة
 الباب . وكانت ليلي مضطجعة فى استرخاء فوق الارىكة القريبة من
 النافذة . وكان فيليب واقفا بالقرب منها منحنيا نحوها قليلا وهو
 يبتسم . وفجأة انفجرت ليلي تهتز بالضحك . فقال لها شيئا
 همسا . لابد أنه كان تحذيرا من ارتفاع صوتها ، لانها أجابته بغير
 مبالاة :

— أوه . لا يمكن أن يسمعا أحد . . فمارجرىت فى الطابق العلوى
 الآن مع أمى . ولا يمكن أن تعود بهذه السرعة
 وعندئذ انقض فيليب بسرعة البرق والصق فمه بفمها فطوقت
 عنقه بيديها

وتراجعت مارجرىت فى صمت وسارت مبتعدة . فلم يعد هناك
 ما تريد أن تراه أو تسمعه . وصعدت السلم مرة أخرى وأغلقت عليها
 باب حجرتها

كانت هادئة تماما . أشد هدوءا مما كانت فى أى وقت من حياتها
 . . . لقد كان الذنب ذنب ليلي على الخصوص . لانها كانت تشجع
 الرجال دائما على مغازلتها . ولكن ليس المهم الآن ذنب من هذا . فلا
 قيمة للأمر كله . كل ما هناك أنها تشعر الآن بأن فى الدنيا أشياء
 — وهذا الأمر من بينها — لا يمكن احتمالها . لانها مستحيلة

وبعد قليل خلعت ثيابها وبدأت تبكى . انها تحبه كثيرا جدا .
 وهى تعلم أنه لم يقصد سوءا . فهو فى هذا على شاكلة أبيها تماما . .



وفى ساعة منكورة من صباح اليوم التالى كان ضوء الشمس يتسلل
 اليها حين جلست الى مائدة زينتها الصغيرة وتناولت ورقة وقلما
 وكتبت الخطاب التالى بجره قلم واحدة :

• عزيزى فيليب

« يؤلمنى كثيرا جدا فى الحقيقة ان أجدنى مضطرة لتسطير هذا الخطاب اليك • لانى أعلم أنه سيبدو شديد القسوة عليك بعد كل ما حدث • ولكن لاحيلة لى • لانى أشعر أن الواجب يقضىنى أن أطلعك على الحقيقة • فأنا لا أستطيع أن أتزوجك • وليس هذا لانى لا أحبك • وليس هذا أيضا لسبب يتعلق بالمال من قريب أو بعيد بل، لانى لا أعتقد أننا سنكون سعيدين معا • انى شديدة الاسف يا عزيزى فيليب ولا أدرى ماذا أقول لك أيضا • ولكنى سأفكر فيك دائما وأتمنى أن يحالفك التوفيق العظيم فى عملك ... »

المخلصة

مارجريت

ورد عليها برجوع البريد برسالة طويلة كتبت على عجل غير متسقة العبارات • زعم فيها - بين ما زعم - أنها تخلصت عنه لانه لم يوطد أمر مستقبله بعد • واعترف أنه لم يصادف حتى الآن شيئا من النجاح • ولكن هذا ليس ذنبه • ثم ختم خطابه بأن طلب منها أن تقابله فى شلتنهام ان كانت أمها ترفض أن يأتى الى البيت • وأعرب عن ثقته بأن شيئا ما قد أسىء فهمه • ولكنهما يستطيعان التغلب على ذلك بحديث قصير يتم بينهما فى أى مكان

وعلى الفور كتبت اليه الرسالة التالية :

« عزيزى فيليب :

« ينبغى ألا تحضر لمقابلتى هنا • وأعلم أنى لا أستطيع كذلك أن اذهب الى شلتنهام • وفضلا عن هذا ينبغى أن توقن بأن المقابلة لن تغير شيئا من عزمى • فليس هناك سوء فهم أو سوء تفاهم • وانما هناك السبب الذى ذكرته لك فى خطابى ، وهو أننى لا أعتقد أننا سنسعد معا ان تزوجنا • ويؤسفنى أنك تظن بى أشياء كثيرة لاصحة لها

المخلصة

مارجريت

وعاد للكتابة بأسلوب أكثر انفعالا فاتهمها بالغدر به لان اختراعه اكتنفه القمل حتى الآن ، فاعتقدت أنه انسان لا خير فيسه ولا فى

اختراعه • ثم قال لها - فيما قال
« من المؤسف أنك لا تتقين بى وليس لك مثل ايمان أبيك
بمواهبي واختراعى • »
فكان صدور هذه الاشادة منه الى أبيها • ومنه هو بالذات من دون
جميع الناس سببا فى زيادة تصميمها وهدوء نفسها فأجابته
« عزيزى فيليب :

« انى أقدر شعورك نحو اختراعك وان كنت تظن اننى لا أقدر
ذلك والحقيقة انى أومن به كما كنت أومن به من قبل واذا اتضح لى
من تصفية التركة اننى أستحق مبلغا من المال أيا كان ، فثق اننى
سأقدم اليك من هذا المال كل ما أستطيع أن أستغنى عنه كى تمضى
فى تحقيق اختراعك واخراجه الى حين الوجود ، كما كان أبى يريد
أن يصنع • ولكن لا حاجة بنا لان نلتقى

المختصة

مارجريت

وجاءها منه بعد ذلك خطاب آخر • خطاب ملئ بالسخط والاتهام
فأجابته اجابة موجزة :

« عزيزى فيليب :

« لم أستطع أن أفهم شيئا من خطابك • أو على الاقل لم أستطع
أن أفهم مبررا لما ورد فيه من عبارات • فان عدت للكتابة الى بنفس
الاسلوب قلن تتلقى منى ردا

مارجريت



وكان واضحا أنها أغفلت فى هذه المرة كلمة المختصة أو الودود •
وكتب اليها خطابا آخر •
ولم ترد !



الفصل الثامن

بعد عشرين عاماً

وقف بومي في قاعة المائدة بضع في طبق أمامه كمية من البيض المقلّى المهد للافطار ، وقال لاخته مارجريت :

— هذا شيء صغير وجدته صدفة في أحد حوانيت الطرائف فأتت مغرمة بالالوان الفنية . ولذا طلبت منهم أن ينظفوه ويرسلوه اليك

وقطعت مارجريت الخيط الذي يضم اللقافة الصغيرة ، ثم فتحت الصندوق الصغير الذي بداخلها وكان على شكل قلب من المخمل الاسود . وبداخل الصندوق فوق الوسادة الصغيرة الحبرية ، رأت حلقة من البلاتين بها فص اسود عنبري اللون في حجم ثمرة اللوز ... حلقة بديعة ملفتة للنظر !

وهتفت مارجريت مبتهجة :

— ما أجمله يا بومي ! انه جميل جداً . اليس كذلك ؟ وكم هو جميل منك ان تفكر في احضاره لي !

ووضعت الخاتم في اصبعها وأخذت تنظر اليه معجبة

— سألته كثيراً . انظر ! انه يكاد يضاهي لون شعري !

— انه من الحجر الكورنيلي . وهو ليس حجراً ثميناً جداً بالطبع ولكنه مع هذا لطيف وجذاب

وجلس بومي الى المائدة . وهو رجل طويل القامة نحيف مهيب المنظر عن بعد . يبدو أنيقاً جداً في ملابس الرائد العسكري . وكان واضحاً انه رجل دقيق في حركاته أنيق رقيق في عاداته الشخصية . ومنظره لا بأس به بالنسبة لسنه . وان كانت ذقنه أصغر قليلاً جداً مما ينبغي ، وانفه أكبر قليلاً مما ينبغي . وفي مقابل هذا كان لون

بشرته ناعرا كثيرة الصبيان . وتكوين رأسه جميلا . وعيناه
لونهما مزيج من الرمادي والبني . وشعره شبيه بشعر مارجريت ،
ولكنه خال من ذلك الطيف النحاسي . فهو احمر اللون حولت الايام
أطرافا منه الى حمرة كالحة تضاهي لون الزمالم . اما حين يبتسم ،
فهو يبدو في احسن صورته لان له فما جميلا وأسنانا بديعة

وكانت سلة المهملات الى جوار مقعده وبين الحين والحين ، في
خلال الطعام ، كان يفرض رسائله بخنجر صغير من العاج ، ويلقى
بالمظروفات الفارغة الى السلة . ثم ينظر في الخطابات نظرة عاجلة
ويضعها على احد جانبيه . وكانت مارجريت تفعل مثل ذلك
برسائلها ، ولكن باناقة اقل منه بكثير . وكانت رسائلها قليلة اما
هو فكانت رسائله تزيد على العشرين

وقال وهو يفرض الرسالة الاخيرة :

— لا بد ان الناس سيكتشفون عنواني الخاص ويرسلون الى هنا
خطاباتهم المتعلقة بالعمل . وأظنهم يستخرجون العنوان من دليل
التليفون وما الى ذلك . وهذا في الحقيقة مما يبعث على الضيق .
فبين هذه الرسائل ثلاث أو أربع كان ينبغي ان توجه الى المكتب

وانصرف الى الطعام يرهة . ثم اكل ثمرة من ثمار الخوخ وقال :
— تيدى ليستر كتب ينبغي أن ابنه ستيفن جرح في آخر معركة
كبيرة . . . فهل نحن نعرف ستيفن ؟ أنا لا اذكر انه زارنا هنا . . .
لا بد ان اكتب الى تيدى على كل حال . . . وهناك رسالة موجزة من
ليدى هوجان ، تطلب ان يقوم احدا بافتتاح سوق خيرية في اليوم
الخامس عشر من الشهر . فهل لك ان تقومى بهذا العمل ؟ فانا
أكره الاشياء التي من هذا القبيل . اما ينبغي فيقول أنه يقضى وقتا
جميلا في باريس مع رجال وزارة الحربية الفرنسية . وانهم
سيمنحونه وساما . وهذا شيء يفرحه كما تعلمين !

وكانت الساعة التاسعة صباحا ذات يوم بديع من ايام سبتمبر
وحجرة الطعام تغمرها الشمس المشرقة . والحجرة نفسها بديعة
تكسو جدرانها اخشاب البلوط السوداء ، وبها مدفأة ضخمة
كثيرة الزخارف

وقبل نهاية الفطور دخل الساقى بصحف الصباح التي وصلت

في تلك اللحظة فتناول بومي التايمز ، وتناولت مارجريت الدبلى ميل . وبعد قليل هتف بومي وهو يرفع رأسه عن الصحيفة :
— ما أغرب هذا ! هنا نعى لمستر هولباين سميث . فهل هو نفس الشخص الذى قابلناه في مارينباد سنة ١٩١٠ ؟

ولم تكثرث مارجريت وقالت أنه ربما كان هو . وتطلع بومي الى ساعة معصمه العسكرية ثم نهض قائلاً :

— لابد لى من الذهاب اليوم الى المصانع . لانه لابد أن يكون هناك احد في مدة غياب بينج

وأخرج من جيبه الجانبي علبة بديعة من الذهب المزخرف بالمينا وأشعل سيجارة مصرية . ثم قال :

— لقد نسيت يا مارجريت أن اخبرك عن نبا آخر تضمنته رسائلى فهناك خطاب من قوم عرفتهم منذ سنوات في سان فرنسكو هم آل كارول . ويبدو أن ابنهم الوحيد في الجيش الامريكى العسكري هنا بالقرب من اكسفورد . وقد اعطونى العنوان ... واطلهم يتوقعون منا أن ندعوه لزيارتنا

— اتظن أن ذلك سيضجره ؟

— أهم من هذا السؤال بكثير أن نسال انفسنا هل ينبغى أن ندعوه ؟ يمكننا أن نغامر بدعوته على كل حال ، لان آله كانوا مثقفين ومن المنتظر ان يكون ابنهم على مايرام . ولعلنى أرسل اليه اليوم سطرا او سطرين ان تذكرت هذا الموضوع

ووضع التايمز بعناية تحت ذراعه وابتسم لمارجريت ثم خرج الى البهو ، فتناول قبعته وقفازيه وعصاه ، ورد على تحية سائق في ثياب الانباشى . ثم اتجه الى السيارة التى تنتظره

وهكذا بدأ يوم آخر من ايامه المشحونة بالعمل



وفي المساء جلس بومي في مواجهة مارجريت على المائدة الكبيرة ، وبينهما اطار من التيل الابيض الذى كوى بغير نشا ، مساهمة في المجهود الحربى للحلفاء . وسألها كالمعتاد :

— هل الوالدة على مايرام ؟

واجابته مارجريت كالمعتاد أيضا :

- كما هي . وقد اخبرتنى انها ستنزل لمقابلة بينج عندما يعود
— اتراها تحب بينج ؟
— يبدو هذا
— أمن المستحسن أن نقيم مادبة صغيرة ؟
— اظن هذا
— لن يكون هناك الا بينج ولىلى . وربما أيضا . . . مسز كلهون
والكابتين لورانس !
— هذا حسينا . فالطاهية لن تستطيع اكثر من هذا
واوما بومى الى الساقى ان ياتيه بزجاجة اخرى من نبيد البرجندي
وقال بعد ان ذهب الساقى لياتى بالنبيد :
— هذا المخلوق لا يبدو نشيطا جدا
— انه خير مانستطيع الحصول عليه فى الظروف الراهنة
— ٢٠٢ . . . بهذه المناسبة قابلت أمس مينشن وأنا خارج من
مكتب البريد فى القرية بعد الظهر فاخبرتنى انه بلغ اليوم التاسعة
والسبعين من عمره . شىء لطيف . اليس كذلك ؟
— ألم تعطه شيئا ؟
— خمسة جنيهات . . . فلم يكن معى أقل من هذا . والحقيقة
أننى لم أندم على ذلك . فالمؤسسة تحقق أرباحا كبيرة فى المدة
الآخيرة
— أوه ؟

وعبت بومى بقطعة من الخبز ثم قال :

- أطلعت على الأرقام اليوم وهى أرقام مدهشة . ويبدو أن
الحكومة تفرقنا بالمال . ولاحظت أن بينج يطالب الحكومة دائما
بأسعار هى ضعف ما ينبغى أن يطالب به فى الحقيقة . . . ولا مفر
من الاعتراف بأنها فضيحة من الطراز الاول ! ولكن يخفف من وقع
هذا على نفسى أن الحكومة تسترد الجانب الأكبر من الإيرادات
فى صورة ضرائب !

واستمر الحديث بينهما على هذا النحو الى أن تناولا القهوة .
ثم ذهبا الى قاعة الاستقبال ، وطالما صحف المساء . وكان أهم
الإنباء فى تلك الليلة النجاح الكبير الذى أحرزه الحلقاء على خط

هندنبرج . فهل ترى بدأت موجة النصر تنحسر عن الألمان ،
وتتحول الى جانب الحلفاء ؟

وأدار بومي الحاكي فسمعا مقطوعات من شومان ثم ذهبا الى
فراشيها . وكان آخر ما قاله لها عند باب حجرته :

— على فكرة ! لقد كتبت الى ذلك الفتى كارول !

— ومتى طلبت منه أن يحضر ؟

— اقترحت عليه أن يحضر للعشاء ذات ليلة وأن يبقى لدينا حتى
الصباح . ولكنهم في المعسكر قد لا يسمحون له بذلك . وعلى أى
حال سننتلقى منه ردا

ومرت أربعة أيام من غير أن يأتيهم رد . وعاد من باريس في
خلالها بينج . أو فلندعه باسمه الكامل: الكولونيل أوين بينجلى.
وجاء معه من باريس بطلبات عاجلة من سيارات لوفل فريشام.
وحضرت ليلى من بورتسموث . وحددت مأدبة العشاء في ليلة ٩
سبتمبر . الموافق يوم الاثنين . وقبلت مسز كلهون والكابتن لورانس
الدعوة

وبعد ظهر يوم الاثنين . قرب وقت الشاي جاءت هذه البرقية

« حصلت على اجازة وقادم الليلة . شكرا — كارول »

وكان بومي في الحديقة يتفقد ازهاره المحبوبة عندما جاءته
مارجريت بالبرقية . وقالت له :

— هذا موقف مخرج للغاية

فاجابها بومي بمجرد قراءة البرقية :

— رديه الى معسكره بمجرد وصوله . لا أظن أن هناك مجالا

لتصرف آخر . اليس كذلك ؟

— لقد ظن أن الدعوة مفتوحة ، وأنه يستطيع أن يختار أى ليلة
يشاء . وهذا مؤسف ... وطبعاً سيفسد نظام المائدة اذا حاولنا
أن ندبر له مكانا عليها

— المائدة ؟ هناك يا عزيزتى مارجريت ما هو أهم من ذلك . لا

يسعنا بأى حال أن نقبل وجوده . فنحن أولا ليست لدينا أية
فكرة عن شخصيته . ويفرض انه الطيف انسان في العالم ، فهذا
لن يمنع بينج من كراهيته لانه أمريكى .. أيرقى اليه اننا لن نكون

في البيت الليلة. أو أي عذر من هذا القبيل يصلح لمنعهم الحضور وأرسلت مارجريت برقية بهذا المعنى، وعاد الهدوء إلى الأسرة وذهبت مارجريت إلى حجرتها في وقت مبكر لترتدي ثياب السهرة وكان عليها أن تقوم برعاية أمها، والإشراف على تبديل ثيابها للنزول إلى قاعة المائدة. لأن الأم مصرة على ذلك كي تقابل بينج. وظلت تنتظر هذه الفرصة منذ أيام

وابتسمت مارجريت وهي تفكر وحدها فيما سترتب على هذا الإصرار، إذ لا بد من إشعال النار في مدفأة قاعة العشاء رغم دفع الجور في ذلك المساء. ولا بد أيضا من دفع الكرسي المتحرك إلى موضع قريب من النار على المائدة كي يتسنى لها الاستمتاع بالدفع والاستماع إلى الحديث والمشاركة فيه بين الفينة والفينة

يألها من امرأة مدهشة! ففيما عدا الروماتيزم الذي لم يرد سوى منذ سنوات، فهي تتمتع بصحة جيدة للغاية. وكان فرجيسون يقول دائما أنها لا تشغل نفسها بشيء، ولذا فمن المحتمل أن تعيش إلى أن تبلغ المائة!

وساعدتها مارجريت في ارتداء ثيابها. وروت لها أثناء ذلك مسألة كارول، ثم تركتها وعادت إلى حجرتها لتتم زينتها، وقد سمعت أصواتا في البهو، استنتجت منها أن بعض الضيوف قد حضروا مبكرين. ثم دخلت عليها الخادمة وقالت لها لقد أرسلني كوكسون ياسيدتي لأخبرك أن هناك جندي حضر لمقابلة الرائد

ولم يكن في ذلك ما يدعو للدهشة، فما أكثر حضور الجنود في مهام لمقابلة الرائد. ولذا استغربت حضور الخادمة بهذا النبا فقالت الخادمة:

— والرائد في الحديقة ياسيدتي ولذا قال كوكسون أنك ربما رغبت في مقابلته بنفسك لتسأليه عما يريد

— وماذا عساه يريد؟ ألم يسأله كوكسون؟

— أظنه سأله ياسيدتي ولكن الجندي ينتظر في البهو

— سأنزل وأراه بمجرد انتهائي من زينتي

واسرعت باتمام زينتها ثم نزلت فوجدت جنديا طويلا جدا يتقدم للاقائها ويقول لها بهدوء:

— اسمى كارول .

فهمت مارجريت وهى تحمق فيه بغياء :

— أوه !

وكان الموقف فى غاية الحرج حقا . فأخوها بومى بعيد عن الدار وسط الحدائق الواسعة ، ومن المستحيل عليها أن تتبادل معه المشورة . وبينج وليلى ومسز كلهون قد يصلون فى أية لحظة . والمائدة معدة وجميع الاسماء وقوائم العشاء مكتوبة وموضوعة على المائدة فى أماكنها ولاحظت أنه يحمل حقيبة صغيرة فى يده اليسرى ، أما يده اليمنى فممدودة نحوها ، فتناولتها بطريقة آلية ، فضغط عليها ضغطة قوية نبهتها من ذهولها . فقالت له وهى تدعو الله أن يتأخر حضور بينج بضع دقائق :

— تفضل بالدخول الى قاعة الاستقبال

فوضع حقيبته وقبعته فوق مائدة البهو وتبعها

— كان كرما عظيما من مستر فرينشام أن يدعونى . لانى كنت أشعر بشيء من الوحشة فى انجلترا . ومن الجميل أن يجد الانسان هنا صديقا . أنت فيما أظن مسز فرينشام ؟

— كلا كلا . . . أنا أخته . أخت الرائد فرينشام

— الرائد ؟ لم أعلم انه فى الجيش البريطانى . فى أية فرقة هو ؟ ولم تكن تعلم بالضبط . فلديها فكرة غامضة بأن بومى لا ينتمى الى أية فرقة . فقالت :

— انه ليس ضابطا فى الجيش العامل . فهو حائز على الرتبة العسكرية، ولكن مهمته التفتيش فى انحاء الريف على آلات الطائرات . — باله من عمل مجيد ! وانتم طبعا اصحاب سيارات لوفل فرينشام ؟

— نعم

— انها سيارات رائعة . وهى ذات سمعة عالية حتى فى أمريكا وكلمة حتى فى أمريكا هذه من طراز الكلمات التى تثير ثائرة بينج والقت على وجهه نظرة فوجدته شابا وسيما ذاعينين زرقاوين بلون الفولاذ . ملامحة دقيقة. ويبدو عليه أنه من أسرة كريمة وأنه تلقى تعليما حسنا . وضغطت على زر الجرس وقالت له بهدوء :

— لعلك تحب أن ترى حجرتك ؟ العشاء سيكون بعد نصف ساعة

ودخل الساقى كوكسون فقالت له :

— خذ هذا السيد الى الحجرة الصغيرة فى البرج

وبعد خروجه مع الساقى أسرع مارجرىت الى المطابخ وتوسلت الى الطاهية أن تعيد توزيع الاصناف كى تكفى بضيف طارىء . ثم خفت الى قاعة العشاء ، ودبرت مكانا سابعا على المائدة بمساعدة الخادمة . وكانت تعلم أن بومى سيضيق بهذا لانه يكره جميع التعديلات المفاجئة ولكن لابد مما ليس منه بد

ورأت بومى قادما مع الكابتن لورانس فأسرعت اليه وأخبرته بما حدث ، فاستاء بومى ولكنها ضحكت وهونت عليه الامر

وأقبلت ليلى مع بينج . وكان بينج فخما فى كسوة الكولونيل . يخال زهوا . اما ليلى فكانت تحمل آثار وضع آخر اولادها . وترتدى قرطا من الزمرد غالى الثمن أحضره لها بينج من باريس . وانتهزت مارجرىت الفرصة فشرحت لهما موضوع حضور كارول المفاجئ ، فقال بينج :

— سيسرنا ان نقابل أى صديق من أصدقاء بومى . ماذا هو ؟

رائد ؟ ملازم ؟ أم ماذا ؟

ولم تكن قد فكرت فى الموضوع من هذه الزاوية من قبل فقالت:

— اظنه جنديا عاديا . نفر فيما اعتقد . ان كان فى جيش

هؤلاء الامريكان انغار !

فضحك بينج ساخرا ، وفى هذه اللحظة دخل كارول . وكانت قد أعدت له مكانا بينها وبين ليلى . وفى الجهة الاخرى يجلس بومى بين كابتن لورانس ومسر كلهون . وسيطر بينج على الحديث كعادته دائما . فهو متحدث بارع له دراية بأشياء كثيرة . وله معرفة بأشخاص كثيرين، ولذا لا تخلو جمعبته من حكايات طريفة عن الناس ولكن مارجرىت كانت لا تحب منه هذه السيطرة على المجلس، وتتمنى لو أنه ترك لسواه فرصة الكلام . الا أنه فى اعتقادها كان زوجا موافقا لاختها ليلى التى بدت مزهوة ببريق قرطها الجديد الثمين وتحدث بينج عن الدسائس داخل الوزارة . وعن مومارتى فى زمن الحرب : وعن الجنرالات الفرنسيين وحكاياتهم مع زوجاتهم

وعشيقاتهم . وعن بوانكاريه وكليمنصو وغيرهما من المشاهير الذين قابلهم اثناء زيارته الاخيرة لباريس . وروى عدة تكات لها اكثر من مغزى . فضحك منها يومى كثيرا ولكن مسز كلهون تصنعت عدم فهم احداها، فكان ذلك مدعاة لامعان الرجال الثلاثة في الضحك اما الرجل الرابع فلم يكن في نظر مارجرىت سوى غلام . وهى تحب الغلمان . فسألته بهدوء وبصوت خافت اثناء انشغال الآخرين فى الضحك :

- كم مضى عليك من الوقت فى انجلترا ؟
- نحو ستة اسابيع
- وكم من الوقت تتوقع ان تبقى هنا ؟
- نحن فى انتظار الاوامر للسفر فى اية لحظة الآن بعد ان انتهينا من تدريبنا
- ان الانباء الاخيرة الواردة من الميدان انباء مبشرة
- جدا
- وهل انت متشوق للذهاب الى الميدان ؟
- جدا
- ولكن الا تشعر بالاسى لبعده عن اهلك كل هذه المسافة ؟
- هذا شيء بغيض طبعاً . والواقع انى هربت من البيت وتطوعت بدون علمهم
- هذا عمل فيه قسوة
- كان هذا أسهل على نفسى من مواجهة المناقشة والمعارضة .
- ولك ان تعتبرى تصرفى منطويًا على الانانية
- كلا كلا . انى اتصور شعورك . اتعلم اننى أشعر دائما بالامعاجاب لان الامريكان انضموا الينا فى القتال ؟ انهم يعيشون بعيدا عنا جدا وكان من السهل عليهم ان يعتقدوا بأن المسألة لا تعنيهم
- فقال لها باسم :

- انت اول شخص انجليزى اسمعه يقول هذا . اما كثرتهم فيتمدرون لاننا لم ندخل معكم الحرب منذ أغسطس ١٩١٤
- وكان بينج يصفى للجزء الاخير من الحديث فتدخل قائلاً :
- ان الامريكان بارعون . فقد دخلوا الحرب فى النهاية ليكونوا

في الجانب الرابع . فلديهم حاسة اقتصادية مرهفة . واظنهم متفائلين جدا بخصوص الحرب في نيويورك ؟
- لا ادرى . فلم اذهب الى نيويورك مطلقا
- حقا ؟

- انى اعيش في بلد يبعد ثلاثة آلاف ميل عن نيويورك . فحين تتوقع منى ان اكون في نيويورك يشبه ان اتوقع منك ان تكون في جبال الاورال

وكان ردا بارعا كما قال لها بومى فيما بعد ، وبدأت مارجريت تشعر بالاطمئنان الى سلامة روح السهرة . وساعد على ذلك جودة الشمبانيا والنكات المكشوفة نوعا ما التى اطلقها بينج فساد المرح جميع الموجودين . وفى قلعة الاستقبال استمع الجميع الى قليل من الموسيقى ، ثم حيتهم مسز فرينشام العجوز واحدا واحدا ثم دفع الساقى مقعدها نحو حجرة نومها . وبعد قليل استأذن الضيوف فى الانصراف وبدأ السائقون يجهزون السيارات للرحيل وكان الليل صافيا والهلال ظاهرا فى الافق الشرقى . وشعرت مارجريت بالراحة والانشراح لنجاح المأدبة وللانتهاء من شواغلها . وانصرف بومى الى الحديقة الشتوية لبحث مع البستاني أعمال الغد وجلست مارجريت مع كارول فى حجرة الاستقبال وحدهما وقالت له :

- أرجو ألا تكون شعرت باستياء للهجة بينج . فهو يكره الأمريكان

- لا بأس . فمثل هذه الأمور لا تؤلمنى
ووجدت ان الفرصة مناسبة لتفسير البرقية التى سيجدها ولا شك فى المعسكر عند عودته . فقالت له :

- ساكون صريحة معك . الحقيقة اننا لم نكن راغبين فى استقبالك الليلة . وتوقعنا ألا يكون هناك انسجام بينك وبين بينج . فأرسلنا اليك برقية نتعلل بعدد من الاعذار لمنعك من الحضور . . . ولكنك حضرت ومرت الليلة بخير

- ولكنى آسف جدا . فلا بد ان البرقية وصلت الى المعسكر

- بعد انصرافى . كان ينبغي ان تخبرينى لحظة وصولى
— لا تفكر فى هذا الامر . فقد سرنى حضورك
— حقا ؟ اتعنين هذا حقا ؟
— ولم لا ؟ يجب ان تعود للزيارة عندما لا يكون بينج هنا
قابتسم وقال :
— اظنك تحسبينى اشعر بالخشية منه . الواقع انى استظرفه
— حقا ؟ بعض الناس لا يستظرفونه حتى بعد ان تتوثق معرفتهم
به . انه مهذب جدا . ولكن عيبه انه يحب السيطرة
— وانت ؟ الا تحبين ان يسيطر عليك احد ؟
— لقد كنت دائما أرفض كل سيطرة على . ولهذا اشعر بتوتر
فى أعصابى كلما كان بينج هنا !
وفطنت الى انها تكلمه كما لو كانت تعرفه منذ سنوات . فجعلها
ذلك تتوقف فجأة عن الكلام . وطال الصمت الى ان قال لها وهو
يتجه بنظره ناحية المعزف الكبير :
— اتعرفين ؟
— قليلا ما أعرف . وهل تعرف انت ؟
— قليلا جدا أيضا . ولكنى لم ألس معزفا منذ شهور
— اذن فلا بد أنك تتحرق شوقا الى لس هذا المعزف
— هذا هو الواقع . فهل تسمحين لى ؟
— طبعاً
فنهض من جوارها وجلس الى المعزف وسكت برهة كأنه عاجز
عن التفكير فى المقطوعة التى يحب أن يؤديها . ثم شرع يعزف
مقطوعة من شوبان من مقام س الصغير . ولكنه بعد قليل بدا
يتردد فى العزف ويتعثر . فقال :
— آسف . هذه المقطوعة أصبحت عسيرة الاداء على الآن .
لقد تيبست أصابعى . سأحاول شيئاً أسهل منها
ثم عزف مقطوعة ضوء القمر من تأليف ديوس . فكان بارعا
رشيقا فى لساته . وبعد الانتهاء من النغمات الأخيرة قال لها :

- ان المعزف بديع الاداء
 فاجابته بهدوء قائلة :
 - وكذلك عزفك
 فاحمر وجهه خجلا وقال متلعثما :
 - بل المعزف هو الرائع حقا ... صوته غنى .. وحنون
 - هذا لانه عتيق . لقد اشتريناه من ال شتاينواى عام اليوبييل
 الماسى للملكة فيكتوريا . وكانوا قد اشتروه مستعملا أيضا
 - ياله من معزف عتيق رائع . ان عام اليوبييل هو عام مولدى
 - وأنا كنت يومئذ فى العشرين . واتذكر انى ذهبت مع أبى
 لمشاهدة المهرجان الكبير
 فدار فوق المقعد المستدير وحملق فى وجهها قائلا :
 - اذن انت فى الحادية والاربعين الآن ! ولم اكن اقدر لك اكثر
 من الثلاثين عاما واحدا !
 - هذه تحية لطيفة من جانك !
 - لم أقصد المجاملة . هى الحقيقة !
 فصحكت . وفى هذه اللحظة عاد يومى . وذهب الثلاثة الى
 قاعة لطعام حيث شربوا كاسا قبل الذهاب الى الفراش . وقال
 يومى انه يريد ان يطوف مع كارول الحدائق فى الصباح . فادى
 ذلك الى مناقشة برنامج كارول . لكنه قال بأنه يجب أن يعود الى
 المعسكر ظهرا . ولذا يجب أن يستقل قطار التاسعة والثلاث . فقال
 يومى :
 - هذا معناه انك سوف لا ترى الحدائق . وهذا القطار بطيء
 ومزعج . لو انه امكننى الاستغناء عن سائق لكلفتة أن يوصلك الى
 المعسكر فى احدى سياراتى
 فقالت مارجريت على الفور :
 - سأوصله فى سيارتى أنا يا يومى بعد أن يشاهد الحدائق
 - هذا ازعاج شديد لك بسببى !
 - لا عليك . انى اذهب كثيرا الى اكسفورد لشراء ما يلزمنى .
 وهناك أمور كثيرة سيمكننى قضاؤها هناك غدا . فلن تذهب
 الرحلة معك سدى

الفصل التاسع

سؤال

نعم كان يومى مبتهجا بمعرفته . فآله يملكون حديقة كبيرة كما قال لمارجريت فى صباح اليوم التالى وهى جالسة فى سيارتها ذات المقعدين تنتظر قدوم كارول بحقيبتيه . واستطرد يومى يقول :

— وليست حديقتهم طبعاً كهذه الحديقة . ولكنها مع هذا حديقة لطيفة . تصورى أنه قال لى أنهم يستنبئون الأزهار التى نزرعها هنا فى الحديقة الشتوية تحت الزجاج ... يزرعونها هناك هكذا فى الهواء الطلق بغير تدفئة خاصة . وهو حقيقة شاب لطيف المعشر بصورة خاتمة للعادة . وأعتقد أنه عرف كيف يصمد لبينج فى الليلة الماضية . وبينج كما تعلمين يحتاج الصمود له الى صفات خاصة ولم يتسع وقتى كى أريه جميع أرجاء الحدائق للأسف الشديد . ولذا يجب أن يأتى مرة ثانية لمشاهدة البقية

— لعلنا إذن سندعوهُ للحضور فى عطلة الاسبوع القادمة ؟

— هذه فكرة طيبة . نعم . وجهى اليه الدعوة على كل حال ... والآن يجب أن أسرع بالذهاب ، وقد ودعته قبل أن يصعد لاحتضار الحقيقة . فلا بد لى من البت فى موضوع كارديف اللعين

وانصرف على عجل فشيعته مارجريت بابتسامة

وكانت الساعة العاشرة صباحاً . والشمس ساطعة . ولا شك أنه سيكون من السهل الوصول بالسيارة الى اكسفورد قبل الظهر . ولما ظهر كارول وراء السيارة ابتهج كثيراً وقال :

— كنت أخشى أن تكون من نوع الليموزين الضخم

فضحكت مارجريت وقالت له :

— أنا أكره السيارات المقللة

فقفز الى جوارها وانطلقت به . وكانت السيارة مريحة ومن أكثر منتجات لوفل - فريشام شعبية . وكانت مارجريت تقودها في يسر وثقة ، فشعر بالسعادة منذ أول لحظة . وعندما وصلت السيارة الى الطريق العام ، وغادرت الاسوار قال لها :

- بهذه المناسبة . لقد أحببت شقيقك كثيرا

- حقا ؟ لشد ما يسرنى هذا !

- والحدائق ... ما أروعها !

- الناس كلهم يقولون هذا ، مع ان الحدائق قد أهمل شأنها في المدة الاخيرة اهمالا كبيرا ، لانه لم يعد في استطاعتنا بسبب التجنيد ان نستخدم أكثر من بستاني واحد متفرغ ، ولكن يومى يعيش من أجل هذه الحدائق ، حتى أننى أقول دائما أنه يفضل في حالة قيام الالمان بغارة جوية على هذا المكان ان يصبوا قنابلهم على البيت لا على الحديقة والاشجار !

وانساب الحديث بينهما هينا ، وكارول يبدى افتتانا بالمناظر الجميلة على طول الطريق ، ويقارن بين هذا الجمال فى المساحات الصغيرة وبين الافاق الشاسعة المترامية فى امريكا

- ولكنك ستحبين امريكا . ولا أقصد طبعا نيويورك والمدن الكبيرة بل تلك الاجزاء الهادئة التى لا يزورها السياح عادة ، مثل أوريجون وتكساس ولويريانا

ثم أخبرها مزيدا عن نفسه فهو ولد وحيد ، والده ليسوا من كبار الاثرياء ، لان والده خسر فى المضاربات فى المدة الاخيرة ، ومع هذا استطاع ان يدبر أمر ارساله الى جامعة ولاية كاليفورنيا فى بيركلى . وكان فى السنة الثالثة موفقا فى دراسته عندما دخلت امريكا الحرب فغير ذلك كل شيء فى حياته ، فأغراه حب المغامرة بالتطوع

ووجهت اليه مارجريت الدعوة للحضور فى نهاية الاسبوع القادم باسمها واسم أخيها فأظهر سرورا عظيما وهتف :

- سيسعدنى جدا أن أحضر ان استطعت ... ولكن أظننى أستطيع ... أوه لا بد لى من الحضور بأى شكل !

ووصلا الى مدخل المعسكر قبل الظهر بعشر دقائق ، فشدد على يدها باسم ، وخيل اليها ان وجه هذا الأمريكى الشاب يمثل كل

جديد ناضر في الحياة . واخذت تبسّم وتلوح له بيديها قبل ان تنطلق بالسيارة ويغيب عن ناظرها



وتمخض ذلك الاسبوع عن أمور مثيرة ، لا بالنسبة للقارة الأوروبية فحسب ، بل وأيضا بالنسبة لهاى ستاو . ففي يوم الاربعاء وقع حادث طفيف ليومى اذ تعثر بنتوء في الارض فسقط وهيض ذراعه ولم يذهب الى الفراش كما نصحته أمه ، بل توجه الى المستشفى الحلى في المساء ، واستشار طبيباً من أصدقائه فقيل له انه سيحتاج الى علاج بالتدليك مدة من الزمن

وفي وقت متأخر من مساء الجمعة بعد موعد العشاء وصل كارول ، ولم يكن أرسل في خلال الاسبوع سطوراً واحدا فلم تدر مارجريت وبومى في أى وقت سيكون حضوره . وكان الاثنان في قاعة الاستقبال وبومى يبحث عن اسطوانة من اسطوانات الحاكي يريد ان يسمعها أما مارجريت فكانت تمر بأصابعها في كسل فوق المعزف واذا بالبواب يفتح ، واذا كارول يندفع نحوها متخطيا الساقى كوكسون بشبابه وحيويته الفياضة وتحت ذراعه صحف المساء :

– الانباء الليلة هائلة . فقد اخذ رجالنا الوفا من الاسرى ، واستولوا على سان ميهيل بأسرها !

وشد على يد مارجريت شدا قويا نقل اليها تيارا من حماسته ، كأنما أزيح الستار فأبصرت أشياء لم ترها عينها من قبل . ثم فطن الى أن ذراع بومى معلقة فى ضمادة ، فأبدى قلقه ، ولكن بومى طمأنه الى ان ذلك الرض لن يحول دون جولتهما غدا صباحا في أرجاء الحدائق . فقال كارول :

– هذا جميل لانه قد لاتسنع لى فرصة أخرى لمشاهدتها . اذ اننا نتوقع صدور الاوامر الينا بالذهاب الى الميدان في أية لحظة فنحن الآن لا نصنع شيئا في المعسكرات سوى انتظار الاوامر . ولذا سمحوا لى بهذه الاجازة بسهولة

ودعاه بومى الى قاعة المائدة ليشاؤول كأسا من الشراب معها . وبعد تناول تلك الكأس ، ذهب بومى كعادته كل ليلة للتفتيش الاخير على الحديقة الشتوية ، وبقيت مارجريت مع كارول وحدهما .

فقلت له :

- هذا غريب . اننى اشعر حقيقة انى اعرفك منذ سنوات
- حقا ؟ وهذا بالضبط ما اشعر به نحوك ونحو بومى وهذا البيت
وكل ما هو انجليزى . وبهذه المناسبة انظنيته يستاء اذا ناديتسه
باسم بومى ؟

- انا واثقة انه لن يستاء من ذلك . وتستطيع ايضا ان تناديني
مارجريت . وساناديك باى اسم تشاء
- اسمى الاول انتونى . ولكنى لا احبه كثيرا . وافضل ان انادى
باسم كارول بالطريقة التى تنطقينها انت !
فابتسمت وقالت :

- وهو كذلك . ليكن كارول اذن
- فلنسرع ونوثق المعرفة بيننا . فانى اشعر ان العالم يدور من
حولنا بسرعة فائقة ، وانه ينبغى ان اجرى بأقصى سرعتى للاحقتها
- اننا على كل حال سنستفيد فائدة كاملة من عطلتك . واذا
كان بومى سيستأثر بك فى الصباح ، ففى استطاعتنا على كل حال ان
نذهب بعد الظهر ان شئت بنزهة فى السيارة الى مكان ما
- لشد ما احب هذا !

- او نتسلق تل ستاو
- وانى لاحب هذا ايضا !
- واذا تغدينا فى ساعة مبكرة فقد يتسع الوقت للامرين معا !
- اذن يجب ان يتسع الوقت للامرين معا !
- وفى المساء اريدك ان تعزف . فسوف لا يأتى احد لتناول
العشاء . وها نحن اولاء قد شغلنا لك وقتك كله
- انى سعيد بهذا جدا . بل انى مستعد ان اعزف لك الان
يا مارجريت ان احببت ذلك ..
- نعم . ارجوك

وذهبت معه الى قاعة الاستقبال حيث شرع على الفور فى العزف
فعزف على التوالى مقطوعات كثيرة من شوبان ورافل وشومان
وبتهوفن . وبعد ان انتهى من عزف آخر مقطوعة قالت له :
- الحقيقة انه يجب ان تحترف العزف !

— كنت مزمعا ان احترفه لولا قيام الحرب

وفي هذه اللحظة عاد بومي فاقترح عليهما تناول كأس أخرى .
وحان منتصف الليل قبل ان يذهب ثلاثتهم الى مخدعهم . وكان
آخر ما قاله بومي لاخته :

— انها لجريمة ان يرسلوا فتى كهذا الفتى الى خط النار وهو
فنان موهوب . وان يتركوا الوفا من الخاملين والعاطلين من المواهب
في وظائف شبه مدنية لا خطر فيها على الاطلاق . انها جريمة
لا تغفر !



واستأثر بومي بكارول في الصباح . ولكن ما جريت كانت قد أعدت
العدة لغداء مبكر ، وبعد الغداء مباشرة ، في الساعة الثانية بعد الظهر ،
كانت سيارتها الصغيرة تجوس بها بين التلال . وكان كارول لا يكف
عن ابداء اعجابه بالمناظر المختلفة فتشعر لرنة ذلك الاعجاب بصدى
في نفسها كان اعجابه موجه اليها شخصا . ثم اظهر دهشته لانتانها
قيادة السيارة هذا الاتقان الفائق ، ثم استورد قائلا :

— ولكن لا عجب في هذا لان اسرتك تعتبر من أوائل القائلين
بصناعة السيارات في العالم . اليس كذلك ؟

— انا لا أستطيع ان ادعى هذا . وكل ما هناك ان أبى كان دائما
على استعداد لاحتضان المشروعات الجديدة . فلما مات فجأة وظفت
أمي مالها في تلك الصناعة . وبعد ذلك انضم الينا بينج . . ولكننا
لم نخترع شيئا بأنفسنا

— أعتقد ان معكم في المشروع شخصا اسمه لوفل أيضا ؟

— نعم وهذا هو المخترع

— اذن فكل منكما كان سببا في ثراء الآخر ؟

— لا أعتقد ان هذا هو الوضع الصحيح للمسألة . فالواقع اننا
اشتريتا منه اختراعه لقاء مبلغ صغير . ثم ظلنا سنوات كثيرة نخسر
في انتاج السيارة الجديدة . ولم يبدأ الكسب الا قبل بداية الحرب
مباشرة . وعندئذ بدأنا نفكر في ترتيب معاش مجز للمخترع واذا به
يموت فجأة

— هل كان مسنا ؟

— بل كان شابا . او على الاقل هكذا يبدو لى انا . لانه مات فى الثانية والاربعين

— ولكنكم اشركتموه فى اسم السيارة على كل حال !
— نعم لقد سعدت . . بل سعدنا كلنا بذلك . وأظن ان هذا الاسم أبهجه اكثر من المال . فقد كانت حياته مأساة
— كنت تعرفه جيدا بالطبع ؟

— نعم
وتناولوا الشاى فى شلتنهام ، ثم عادا عن طريق تل ستاو . وهناك صعدا الى القمة معا على الاقدام ، وأخبرته بتاريخ البرج العجيب وفى تلك الليلة تناولوا عشاء متأخرا ، وظل يومى يتحدث بلا انقطاع عن الحداثق . وأدهش مارجريت ان ترى أمها تنزل الى قاعة الطعام قرب نهايته . وبدأ عليها أنها تستغرف كارول بصورة واضحة . وكان الفتى شديد الهمد والاهتمام بها ، فتجاذب الاثنان حديثا طويلا متشعبا . ولما ذكر موضعا معينا فى امريكا ابتسمت السيدة العجوز وقالت :

— نعم لقد ذهب مستر فرينشام والد مارجريت ويومى الى هناك مرة . فقد كان من كبار الرحالة . ولا أظن أن على وجه الارض قطرا لم يزره مستر فرينشام . فقد شملت أسفاره جنوب أفريقيا وامريكا والهند واستراليا وزيلندة الجديدة وسيبيريا . . .

وابتسمت مارجريت لعماسة أمها كلما ذكرت زوجها فى الايام الاخيرة . ويبدو انها نسيت كل شيء عنه ما عدا الاساطير التى نسجت حول شخصيته وأهنته ، فصار فى نظرها تلك الشخصية العجيبة التى تعرف كل شيء وكل انسان . انه بطلها الاسطورى

وابتهجت مارجريت لان أمها أحبت كارول . ولم يعد لديها شك فى ذلك عندما سمعتها تطلب منه أن يعزف لها شيئا بعد العشاء ، وأمرت أن يدفعوا مقعدها المتحرك الى جوار المعزف . فعزف كارول لها مقطوعتين من الفالس لشوبان ، فشكرته وصعدت الى فراشها واستمر هو يعزف الى ان وصلت صحف المساء . فأخذ يطلعها بشغف لانها كانت تتضمن مزيدا من التفاصيل عن الانتصارات الامريكية فى سان ميهيل . ولما تركهما يومى لزيارة الحديقة الشتوية

كعادته جلست بجواره على الارىكة فابتسم وقلب صفحات الاطلس الذى بين يديه والذى كان يراجع فيها خريطة المعركة . وعلى خريطة تمثل الولايات المتحدة جعل يدلها على الطريق التى ستسلكها الى كاليفورنيا حين تاتى لزيارته . والتقى راسها فوق الخريطة الكبيرة وعيناهما تتابعان حركات أصابعه ، الى ان بدأت الوانها واسماء ولاياتها تتداخل وتهتز امام عينيها . ولما وصلت سباته الى سان فرانسيسكو استولى عليها صمت ، الى ان رفعت اليه عينيها وقالت :

- انك تفكر فى شىء ؟

- نعم وكذلك انت

- لقد كنت افكر يا كارول فى هذه الحرب . ويدهشنى ان رجلا من كاليفورنيا وتكساس ولوزيانا يقطعون آلاف الاميال ليحاربوا فى فرنسا . ان هذا يبدو نوعا من المعجزة والان فيم كنت تفكر انت ؟
- لم اكن افكر فى شىء من هذا اطلاقا

- فيم اذن ؟

- ان احنقك ان اكون صريحا ؟

- كلا بالطبع

فاجابها بهدوء وهو يبتعد براسه عن راسها :

- كنت اتساءل لماذا لم تتزوجى قط

وشعرت باعياء غريب يستولى عليها ويسرى فى اطرافها ، حتى انها اتكات على وسائد الارىكة ، وهمست بقولها :

- هذا سؤال من الصعب الإجابة عنه

- انه ليس سؤالا . ولست اريد عنه جوابا . وانما هو الموضوع

الذى كنت افكر فيه وأقلبه فى راسى

وابتسمت للهجة الجدة التى يتكلم بها

- ربما اخبرتك بهذا كله يوما ما

- ولكنى لم اطالبك بالاجابة يا مارجريت

- ولكن هب انى احب ان افضى بها اليك ؟

وقطع عليهما الحديث دخول يومى



وكان اليوم التالى رطباً بعض الشيء يكتنفه ضباب خفيف ولكنها

خرجت به فى الصباح ، فتنقلا بالسيارة مخترقين شلتتهما الى
تويكسبوري . وتناولوا الغداء هناك بعد أن شاهدوا معالم المدينة
العتيقة ثم اتجها الى بريدون . وبدأ لهما تل يريدون وسط الضباب
وكانه جبل شاهق . ثم افراهما المنظر بالصعود الى القمة فتركا
السيارة وبدأ فى التسلق . وقالت له :

— هذه هى المرة الاولى التى اتسلق فيها هذا التل

— هذا جميل . فكلما قلت لى هذه أول مرة أزور فيها هذا الموضع
منذ كذا وكذا من السنين اشعر بالسخط لانه يوحى بانك عجوز
— ولكنى عجوز فعلا !

— لست عجوزا ! انك فى مثل سنى . . فيما يتعلق بكل اساسيات
الحياه

فابتسمت وقالت له :

ولكنى اعلم انى عجوز . حتى وان كنت لا تعلم هذا . فعندما
كنت فى سنك كنت تستطيع ان اتسلق هذا الجبل من غير توقف .
أما الان فانظر كيف الهت كانى آلة بحارية !

— لا بد انك كنت رائعة فى تلك السن . ولكنك اشد زوعة فى
الوقت الحاضر . وما اكثر الفتيات الرياضيات فى سن العشرين .
ولكنى لم اقبل فتاة تضاهيك يا مارجريت
— انك تجملى سجايلة مسرفة !

— بل انى اعنيها بخلافها يا مارجريت ، فانا بكل امانة لا استطيع
أن اتخيل فتاة فى العشرين تضارعك فى سحرك وفتنتك
— هذا غير معقول . فانا استطيع ان اعطيك اسماء عشر فتيات على
الاقل من بين اصدقائى . وان أردت الدليل سادمو بعضا منهن
للغداء غدا

— ارجوك الا تفعل ! لانى ساكرهن ، فانا فى الواقع لا احب
الفتيات !

— حقا ؟

— انا افضل الرجال دائما . ولا اشعر بالارتياح مع الفتيات
لما فيهن من بلاهة وفتاهة اما انت . . فهادئة رزينة وتشعيرتنى
لطمائنة الكاملة

— هذا لاني اكبر سنا
— كلا كلام من فضلك . وحتى لو كان الامر كذلك ، فالسن اذن هي
احب شيء في الدنيا . واظن هذا ايضا هو راي الآخرين
— الآخرين ؟ مثل من ؟
— بينج مثلا . فقد فطنت لنظراته اليك في الاسبوع الماضي وكان
واضحا جدا اعجابه بك
— هذا هراء يا كارول . فبينج ينظر هكذا الى كل امرأة متى شرب
كاسا من الشمبانيا او كاسين
— ليس الى كل امرأة في الاربعين على كل حال !
وقرب القمة توقفا عن الصعود ليستعيدا انفاسهما . وقد اتشع
الضباب من فوقهما وتجمع من تحتها ، فكان المنظر بديعا جدا .
ونظرت مارجريت نحو التلال الاخرى البعيدة التي برزت قممها
فوق الضباب وقالت له :
— الم تزل تتساءل لماذا لم اتزوج قط ؟
— لا تقولي لان بينج تزوج ليلى ؟
فضحكت وقالت له :
— ولكن هذا هو السبب فعلا . ومن العجيب انك ادركت ذلك من
تلقاء نفسك ! ان المسألة كلها تبدو لي بعيدة عن التصديق الآن
ولكن هذه هي الحقيقة على كل حال . فقد مضى على وقت كنت
مستعدة فيه ان اترعى على عنق بينج عند اول اشارة منه
— هل كنت تحبينه ؟
— كنت اظن اني احبه . ولعلني كنت احبه فعلا عندئذ . ولكن
هذا كان منذ زمن طويل . كنت يومئذ في الخامسة والعشرين . وكان
بينج هو مدير المؤسسة ، فكنا نراه كثيرا بطبيعة الحال . واليه
يرجع الفضل في توطيد دعائم المصنع . ولولا جهوده الادارية والمالية
الخارقة لكنا كلنا اليوم فقراء . ورغبت امي في ان يتزوج احدانا .
ولم يكن يعينها من هو التي يتزوجها . فاخترت ليلى لانها كانت
جميلة جدا
— لا بد ان وقع ذلك عليك كان قاسيا للغاية !
— هكذا كان شعوري عندئذ . ولكنني سعيدة الآن لاني لم اصبح

مسز بينج

— انه يبدو لى على ما يرام
 — انه كذلك فعلا ، ولكنه يفرض دائما ارادته عليك لا تدرى كيف .
 ولىلى لا تبالى بذلك . اما انا فتكوينى مختلف عن تكوينها
 وشرا يهبطان التل . فقالت له :
 — انه لعجيب جدا ان افضى اليك بأسرارى على هذا النحو !
 وامتلات عينها بالدموع وهى تضع يدها على ذراعه وتقول :
 — كل شيء فيك ناضر جديد . وانا كل شيء فى متيق . وأظن
 ان هذا كان بداية المناقشة بيننا ...
 وركبا السيارة عائدتين عن طريق التلال . وكانت تتكلم طول
 الوقت تقريبا وتشجعه على القاء الاسئلة . ثم قالت له قرب الدار :
 — من العجيب حقا أن أخبرك انت بما كان فى نفسى من تعلق ببينج
 فيما مضى . فما من أحد يعلم هذا ولا سيما بينج نفسه
 — ألم يحس بشيء ؟ ألم يخمن ؟
 — اطلاقا . وكان ذلك مصدر متعة لى
 — لا أظن هذا . فمن الفاجع جدا أن الرجل الوحيد الذى احببته
 فى حياتك لم يفطن الى تلك الحقيقة !
 فضحكت عندئذ ضحكة عصبية وقالت :
 — اراك تقفز الى النتائج بصورة رومانسية يا كارول . فمن الذى
 قال لك ان بينج هو الرجل الوحيد الذى احببته فى حياتى ؟
 واحسب باضطرابه . فشعرت بصدى ذلك فى نفسها مزيجا من
 اللذة والخوف . وطاب لها ان تكشفه بتلك الامور المطوية فى
 سريرتها ، فقالت :
 — الواقع يا كارول انه سبق لى حب مثير للغاية وانا فى العشرين
 من عمرى مع الرجل الذى اخترع السيارة .. فيليب لوفل !
 — رباه !

— لست ادرى ما الذى جعلك تصيح هكذا . فليس عجيبا قطعا
 ان تفتتن فتاة فى العشرين من عمرها بمخترع شاب جميل الصورة
 وقد جن كل منا بالآخر جنونا حقيقيا زهاء شهر من الزمن . حتى
 لقد ظننت ان هذا الحب هو الحب الاكبر فى حياتى ... وقد

تخلّيت عنه فيما أذكر لاني ضبطه يعانق ليل ويغازلها
نعم هذه هي الحقيقة . وما أغبانى في تلك الايام
- لا اصدق هذا !

- ولكنها الحقيقة . لقد كنت فتاة لا تطاق وأنا في تلك السن ،
ولا تصلح لرجل يريد ان يوطد مستقبله . كنت اريد ان استأثر من
وقته بأكثر مما يجب . وكنت أغار لانه لا يهمل عمله لينصرف الى
حبي وصحبتى . واعتقد أنه أحس بالراحة في أعماقه عندما تخلّيت
منه

- ولكنك كنت تحبينه ؟

- بصورة لا توصف !

- وماذا عنه هو ؟ هل تزوج فتاة أخرى ؟

- كلا . فهو ليس من الطراز الذي خلق ليتزوج . ولكن بصيرتى
يومئذ لم تسعفنى بهذا الاكتشاف . فعمله كان مقدما لديه على كل
شيء . ولم يكن اهتمامه بالنساء الا شيئا ثانويا عندما يكون لديه
متسع من الوقت

- ان هذا يبدو فظيلا !

- كلا ! لقد كان لطيفا جدا مع الفتيات اللواتي كن يغازلنه على
شرطه . وكانت غلطتى اننى أحببته حبا حقيقيا . وفيما بعد ، لما
خمدت الجذوة صارت العلاقات بيننا ودية جدا . وكان من الفاجع
حقا أن يموت في اللحظة التي بدأ فيها نجاح عمله
فجمع قبضتيه وحقق أمامه بأسى وقال :

- هذا أمر فاجع ، نعم له ولك أيضا يا مارجريت !

- لقد افتقدته كثيرا بالطبع

- ولكن في مجموع حياتك يا مارجريت بصرف النظر عن الفاجع
فيها وغير الفاجع ، وبصرف النظر عن هذا الحب الاول ثم حبك
لبينج . . . ألم تشعرى في غضونها بسعادة على الاطلاق ؟
فاجابته وهى تضحك ضحكا هادئا عميقا كأنها تتحداه :

- بل حفلت حياتى بأكداس فوق أكداس من السعادة . أوكد لك

هذا . أم ترانى ابدو نموذجا للنعاسة ؟

وكان الغسق قد خيم على الطريق والمراعى . والقمر قد توسط

السما . والرياح قد اخذت تكسح امامها الضباب وتطرده من الوديان ، فقال لها :

— كم اتمنى لو صعدنا تل ستار مرة اخرى !
— في استطاعتنا ذلك ان كنت تريد ذلك حقا

وتركا السيارة عند السفح وشرعا في الصعود . ورنث على البعد اجراس كنيسة . فلما ارتفعا عن سطح الارض بدت لهما عن بعد انوار هاي ستاو . ولا رفعا راسيهما ، وجدا ضوء القمر ينعكس على البرج العتيق ، وكأنه منارة مرفوعة في عرض اليم . وبعد ان وصلا الى القمة شرعا في الهبوط من الناحية الاخرى ، وقالت :
— ان هذا الطريق سيفضي بنا الى الدار مباشرة . ولا وجهه للقلق على السيارة لاننا نستطيع ان نرسل احد السائقين لاحضارها فيما بعد

وكانت كل كلمة وكل همسة تتردد لها اصداء بغير نهاية في سكون الليل . فاترا الصمت الى ان دخلا في منطقة كثيرة الشجر فصاح فجأة :

— انظري ، انظري هناك !

ورات ضوء القمر يكشف عن جذع شجرة ميتة ملقى بجيت يسد طريقهما وكأنه شبح . ولكن المنظر لم يكن فيه ما يبعث الخوف لان كل شيء في ضوء القمر وتحت تلك السماء الصافية كان هادئا مانوسا

واقتربا من الشجرة . وعندئذ هتفت هي :

— عجبا . انها الشجرة العتيقة التي حفرت انا وبومي الحروف الاولى من اسمينا عليها ونحن طفلان !

— ألم تكوني تدلين انها في هذا الموضع ؟

— ان بومي أحدث تغييرات كثيرة ، وقطع كثيرا من الاشجار منذ

سنوات . فظننت هذه الشجرة بين الشجر الذي قطع ويح

ووقفا امام الشجرة يفتشان عن مواقع تلك الحروف . فاكشف

كارول اولا الحروف الاولى من اسمها ثم حرفي ف.ل. فقالت له :

— اتقول ف.ل ؟ هذا فيليب لوفل . لقد نقش الحرفين بجوار

حرفي اسمي ذات يوم عندما صعدنا الى هنا

— عندما كنت في العشرين ؟

— نعم

— ثم نسيت كل ما يتعلق بالموضوع ؟

— كلا . ليس بالضبط . كل ما هنالك انى بحاجة الى ما يذكرنى
بهذا الماضى . والواقع اننى اذكره الان بكل وضوح . لقد حدث
هذا ذات صباح يوم ماطر من ايام الصيف وقد للننا بهذه الاشجار
لنحتفى من المطر

— وهل كان هذا عندما كنت تحبينه ؟

— ربما ... او قبيل ذلك . فالانسان لا يعرف دائما متى يبدأ
بالضبط فى حب شخص ما ..

— حقا ؟ اما انا فأعرف

— انت ؟

ونظرت اليه غير مصدقة . فأجابها :

— نعم . فقد عرفت اننى احبك فى الليلة الماضية عندما كنا ننظر
معا فى اطلس الخرائط الملونة

ورأت نور القمر ينعكس على عينيه . فلما فكرت فى جواب هبت
الرياح الندية بين الشجر ، وألقت تحت اقدامها بحفنة من الاوراق
الجافة ... ان الامر كله يبدو غير معقول وسخيفا على لحو ما .
ولكنه سخف ليس اشد من سخف القدر الذى ارسل اليها ...
وها هى ذى تجد نفسها هادئة هادئة هادئة غريبا وهى تقول له بعد برهة
صمت غير مشحون بالتوتر :

— يا كارول ... انك لا يمكن ان تعنى ما تقول

— بل أعنيه

— اتمنى على كل حال الا يكون ما قلته صحيحا . اتمنى ان تكون
مندفعا مخدوعا

— بل انى وافق يا مارجرىت من انى احبك اكثر مما احببت اى
انسان او اى شىء منذ ولدت !

— اوه .. انى آسفة ... آسفة جدا

— لماذا ؟

فهزت راسها وقالت :

— كلا . كلا . . . لا ينبغي أن نتكلم في هذا الموضوع وهيا بنسنا
تسرع بالعودة الى البيت !

واجتازا المراسى ذات اللون الغضى التى تغمرها أشعة القمر ، ثم
النهر ، ثم حدائق الزهور التى بدت كأنها تستحم فى الاشعة الفضية
ولم يتبادلا كلمة واحدة الا عندما كانت تشير بين الحين والحين الى
هذه الشجرة أو تلك ، أو الى مجموعة من الزهور تعترض طريقهما
كأن تقول :

— هذا الكريزانتيم قد نجحت زراعته جدا هذه السنة ٠٠ وهذه
البلوطات القرمزية التى تراها هناك تبدو متوهجة فى ضوء القمر . .
انا لا استطيع أن أتذكر اسم هذه الزهور الزرقاء الجميلة ، ولكن بومى
يستطيع أن يحدثك عنها طبعاً . .

والحقيقة انها كانت تبذل جهدا كجهد اليأس فى تجاهل ما حدث
بينهما من حديث ومن مكاشفة تجاهلا تاما . وأخيرا عندما اقتربا
من الدار التفتت نحوه وقالت :

— لا تظن يا كارول أننى تأذيت من كلامك على الإطلاق . . لا تجعل
هذا يتبادر الى ذهنك . . ولكننا . . يجب أن نبقى أصدقاء على
الدوام . . هل فهمت ما اعنى ؟

ورحل كارول تلك الليلة بعد العشاء مباشرة لانه يجب أن يصل
الى المعسكر فى منتصف الليل . وكان هناك قطار مناسب له يغادر
شلتنهايم فى منتصف العاشرة فتولى السائق روجرز توصيله الى
المحطة



الفصل العاشر

معركة العواطف

من أسبوع بأكمله قبل أن تصلها أنباء منه . وكان ذلك الأسبوع حافلا بالأحداث العظيمة في العالم كله . ففيه أنهارت بلغاريا وسقطت الناصرة في أيدي الجيوش البريطانية وهزم النبي الأتراك هزيمة ساحقة

وفي يوم الأحد وصلت برقية منه تقول أنه سيأتي في المساء وكانت مارجريت تتحدث إلى أمها فقدمتها إليها بعد أن قرأتها بنفسها ، فأظهرت السيدة العجوز اغتباطا شديدا بنبأ حضور هذا الشاب اللطيف ، وقالت أنها ستنزل في وقت العشاء لأنها تحب أن ترى هذا الشاب :

— انه من الطراز الذي كان أبوك خريا أن يحبه كثيرا !

ولكن مارجريت عجبت في نفسها لماذا يجشم نفسه السفر ثلاثين ميلا لمجرد الزيارة والعودة في نفس اليوم . وحدثتها نفسها انه تلقى الأمر بالرحيل إلى الميدان ، وأن الدافع له إلى الحضور هو توديعها . واعترضت صدرها قصة من قصص الخوف . الخوف من رؤياه والخوف من توديعه . فان ما كان بينهما من حديث ومكاشفة بين أشجار البلوط على تل ستاو ، قد جعل الأمور بينهما تبدو لها حرجة بعض الشيء

وكان وصوله قبل الوقت الذي توقعته بمدة طويلة . وكان أطفال ليلى قد جاءوا بعد الظهر فظلوا يتوسلون إليها أن تسمح لهم بلعبة الاستخفاء في الحديقة . وبين صيحاتهم :

— من فضلك ياخالة مارجريت !

اقبل كارول يهبط السلم بسرعة . وعلى الفور سكنت الصياح

وجعل الاطفال جميعا ينظرون الى هذا الغريب ذى السحنة الصبيانية
الذى يرتدى كسوة عسكرية غير مألوفة لهم ، ويشد على يد الخالة
مارجريت بحرارة ويقول لها وهو يلهث :

- أعلم أنى جئت مبكرا جدا ولكنى استعرت دراجة بخارية حتى
لا انتظر القطار . وأرجو ألا اكون قد سببت ازعاجا !
- كلا بالطبع

وكأنت تشعر بشيء من التوتر العصبى ، وتتساءل هل يشعر
هو أيضا بذلك التغير الدقيق فى العلاقات بينهما . واستطردت بعد
برهة :

- أنك تبدو فى أحسن صحة !

- وكذلك أنت . والانباء التى فى الصحف ليست رائئة ؟

- الى حد أن الانسان لا يكاد يصدقها . واخشى أنك ستصاب
بشيء من خيبة الامل لان بومى ليس هنا . اذ اضطر للسفر مع
بينج لتسوية بعض مسائل تتعلق بالاعمال

- لا حيلة فى هذا اذن . وأنت هنا على كل حال . اليس كذلك ؟

- والآن اسمح لى أن أقدم لك أبناء أختى . بيتر وميكى وجون
وبريان . بترتيب أعمارهم طبعاً . وهذا يا أطفال مستر كارول
القادم من أمريكا

وسرهم أن تراهم على الفور يستجيبون لسحر شخصيته ، فالتفوا
حوله يفحصون كسوته العسكرية فى لهفة مزوجة بالخجل ، الى أن
قال بيتر وهو أكثرهم جرأة وأكبرهم سناً :

- أبى يقول انكم معشر الامريكيين دخلتم الحرب متأخرين
جداً

وضحك كارول واخذ يداعبهم ويناقشهم ، فلم تمض دقائق الا
وهو فى نظرهم بطل . وعندئذ سمحت لهم مارجريت أن يجرؤوا
ويلعبوا فى الحدائق

وقال كارول اذ ذاك :

- هؤلاء أطفال ليلى فيما اعتقد

- نعم وهناك طفل رضيع أيضاً

- مجموعة لطيفة . ما أسعد ليلى وبينج بهم

- بينج يعبدهم وهم يعبدونه طبعاً . ومن المؤسف أنه يضطر
للابتعاد عن البيت كثيراً من الأحيان

وظلاً يتجاذبان الحديث وهما يسيران في الحدائق ويلتقيان بين حين
 وآخر بأحد الأطفال مختلفين عن أعين أخوته . وبدأت تسترد سجيتها
 فأحست بسرور لصحبته يغمرها بالدفع . فقد خامرتها الشكوك
 أثناء الأسبوع ، أما الآن فكأنما حدثت معجزة بدون هذه الشكوك ،
 وأيقنت أنه من الممكن بعد الذي حدث بينهما أن يكونا صديقين .
 وقال كارول فجأة :

- اظنك تدركين لماذا جئت ؟

- لكى تودعنا ؟

- نعم . فسوف نرحل غداً

- الى فرنسا ؟

- نعم

- هل تظن أنك ... ستشارك ... فى القتال ... سريعاً ؟

- جائز جداً . فلا أحد يدرى ماذا سيحدث !

- اظنك مستشار الأعصاب ؟

- بصورة هائلة

- بومى سيحزن لأنه لم يرك قبل أن ترحل

- ليس لهذا أهمية حقيقية . فسوف أراه مرات كثيرة فى المستقبل

على ما أتمنى

- نعم . هذا طبيعى

- وكذلك أنت ؟

- طبعاً ... الى متى ستبقى هذا المساء ؟

- المفروض أننى سأعود قبل منتصف الليل . وطريق العودة

لا يستغرق بالدراجة البخارية ساعة

- عظيم . اذن تستطيع أن تبقى للعشاء وتعزف على البيانو

بعد ذلك

وكان رائعا جداً ان يستطيع كلاهما الكلام بصورة عادية ، كأنما

حادثة أشجار البلوط لم تقع إطلاقاً . فهاهما ذان كأي صديقين

قديمين حميمين . وعندما أقبل الأطفال تحوهم المربية للتحية

قبل الرحيل ، شعرت بفخر عظيم لما رآته يصافح بيتر وميكي
وبريان ويقبل جون . وكاد فرحها به يعجزها عن الكلام
وبعد ذلك دخلا الى البيت لتناول الشاي . وكانت النار قد
اشعلت في مدفأة حجرة الطعام ، فجلسا في مقعدين وثيرين على
جانبى المدفأة واستمرا فى حديث لا ينقطع . وقالت مارجريت :
- ستنزل امى للعشاء كى تراكه خصيصا
- حقا ؟ انى اقدر هذه المجاملة كل التقدير ، فهى سيدة رائعة !
- لشد ماتحب أن تسمع هذا منك
- حقا ؟ اذن سأقول لها ذلك متى سنحت لى فرصة . كم
عمرها ؟

- خمس وسبعون سنة
- قال لى بومى أن بصرها وسمعها فى احسن حال
- نعم . فهى تستطيع أن تقوم بكل شىء فيما عدا المشى . وقد
عجزت عن المشى منذ أكثر من ثلاثين سنة
- ياله من عمر مديد ! وكيف حدث ذلك أصلا ؟ أهو نتيجة
حادث ؟

- نعم . نتيجة نوع من الحوادث
- ومع هذا يعتقد الناظر اليها الآن أنها نعمت بأسعد حياة فى
العالم !
- لعلها تعتقد أنها سعدت فى حياتها . وهذا الطف شعور يحس
به الانسان حين يكون فى الخامسة والسبعين

وتجمعت ظلمة الغسق حولهما وهو جالس أمامها مشبوك اليدين
بين ركبتيه ، ووهج النار ينعكس على وجهه فيبدو حديث السن ،
يتدفق عافية وقوة . وظلا يثرثران بلا هدف الى أن صار من
الضرورى أن تتركه لتساعد أمها على ارتداء ثيابها تأهباً للعشاء
وكان العشاء نفسه ناجحا جدا ونزلت السيدة الأعجوز فى ثيابها
الحريرية السوداء ذات الحفيف ودفعوا مقعدها الى مكان قريب من
النار بجوار كارول . وظل الاثنان طوال المدة التى استغرقها الطعام
يتحدثان فى مودة ظاهرة تكاد تصل الى تبادل الغسل ، وطلبت
مارجريت من الساقى كوكسون أن يأتى بزجاجة من أفخر أنواع

الشمبانيا . وشرب كل واحد منهم نخب الآخرين . وضحكوا جميعا
من قلوبهم . وبعد العشاء بدأت مسز فرينشام تهوم للنوم ، فدعى
كوكسون كي يصعد بها الى حجرتها . ووضع كارول يده في يدها
المفضضة وقال لها :

— اتعشم أن ألتقى بك ثانية ياسيدتى . فانا ذاهب الى فرنسا
غدا

— فرنسا ؟ لقد ذهبت الى فرنسا ذات مرة أوه ؟ اتعنى أنك
ذهاب الى الحرب ؟

— نعم الى الحرب

— اذهاب أنت لمقاتلة الألمان ؟

— ان وقع نظرى على أحد منهم

— تمنياتى الطيبة ياعزيزى يجب أن تأتى ثانية . فيما بعد
. . . . حفلة كبيرة يومى وبينج وداعا . يجب أن اذهب
الى فراشى !

وبدا كوكسون يدفع المقعد . فقالت مارجريت :

— من اذنك يا كارول . ساصعد وأشرف على راحتها
وكانت مارجريت تبتسم عندما عادت لتقول له :

— لقد تركتها غارقة فى النوم . خادمتى هى التى تغير لها ثيابها
وترقدوها فى الفراش ، ولكنى أحب دائما ان اكون موجودة الخامسة
والسبعون ! ياله من عمر ! وهى مع هذا فى صحة جيدة جداً بالنسبة
لسنها

وأقبل كوكسون يحمل أقداح القهوة وشرايا معتقا من انتاج
سنة ١٨٣٤ ، لان مارجريت كانت مصممة على أن تحتفل احتفالا
خاصا ببليلة الوداع هذه . وانتقلا الى حجرة الاستقبال حيث كانت
النيران تتراقص فى المدفأة فقال :

— لا تشعلى الأنوار لانى أحب العزف على وء النار . واتجه
على الفور الى المعزف ، وشرع يؤدي الحاناً صغيرة هينة لم تكن قد
سمعتها من قبل . وكان عزفه جميلا كالعادة . ولكنه فى هذه المرة
كان أجمل وأرق . ولعل هذا الجمال كان فى أذنيها أكثر مما كان فى
مرفه وجلست مارجريت بجانب المدفأة تصغى وتصفى الى أن

امتلات الحجره بأطياف السحر المترافضة أمام عينيهـا ... وكانت طوال الوقت تتخيله راقدا في الخنادق وقد جرحت يدهـا ، تلكما اليدان اللتان يتمثل فيهما كل شبابه ونضرته . وشمرت على القور بعجزها وضعف حيلتها ازاء هذه الصورة المروعة . فهاهوذا ذاهب الى مصيره المجهول . وهامى ذى عاجزة عن منعه

وابتسمت نصف ابتسامة عندما انتهى من العزف ، وأقبل نحوها وركع أمام النار لتدفئة يديه . فسألته :

— هل أنت مقرور ؟

— نعم . جدا ... ويجب أن أقول لك شيئا سواء أحببت ذلك أم لا . لقد ظننت في البداية أنى مستطيع أن امضى من غير أن اصارحك به . ولكنى أرى الآن أنى لا أستطيع ذلك . لان الكتمان سيؤلىنى لما يفوق طاقة احتمالى ... يامارجيريت . يجب أن تعلمى . لانى أريدك أن تعرفى بالضبط ماذا أعنى ... أنى أحبك يامارجيريت . وسواء كان هذا سخيفا في نظرك أو غير سخيف ، فانا أعلم علم اليقين أنى لن أحب احدا سواك

وتلاشت جميع خططها وقراراتها في هذه اللحظة وتركتها فريسة لرغبتها وحدها . وأخست بشلل يصيب ارادتها حتى عجزت عن القيام بأى شىء ماعدا شيئا واحدا ، هو الانحناء بوجهها الى مستوى وجهه وهو راكع على الارض

وبعد قبلتهما الاولى المحرقة غغم يقول لها :

— لا حيلة لى في هذا ...

فأجابته بمثل همسه :

— ولا انا يانارول يا حبيبى ...

وخيل اليها عندئذ أن سحب الحرب الداكنة اخذت تدنو من الارض فجأة حتى لامستها . وعلمت أخيرا علم اليقين أنها تحبه أن الحرب هى التى جمعتهمـا وهو على حافة الحياة وهى فى قرار الحياة بكل غناه وعنف انفعاله . والحرب أيضا هى التى ترشك أن تفرق بينهما ...

وتال لها بصوت أجش :

— عندما أمود ، فيما بعد ... أريد أن اتزوجك

— تتزوجني أنا ؟

ولكنها علمت عندئذ أنها تريد أن تتزوجه أكثر مما أرادت أن تتزوج أي انسان آخر في حياتها . بل أكثر مما تمنى أي شيء في عمرها كله ...

— ولكن ياكارول ... انك لا يمكن أن تعني هذا !

— ولم لا

نعم ولم لا ؟ هناك عشرات من الاسباب . انها واثقة من هذا . ولذا قالت له بعد برهة صمت :

— ياكارول . لا ينبغي أن تكون سخيقي في تفكيرنا . تذكر

ياكارول كم تبلغ سني !

— ان سنك لا أهمية لها عندي مطلقا . أنا لا أفكر فيها قط .

ان كل ما أفكر فيه هو أنت . أنت فقط . شخصك . وأنا أعني

هذا بحدافيره . وما كان ليغير من رأيي ان تكون سنك مائة سنة !

فقالت باسمه :

— ان الموقف كان يبدو أقل سوءا لو كانت سني مائة سنة . لانك

في هذه الحالة ستكون في الثمانين . أما الآن فيجب أن تدرك وجه

الاستحالة ياكارول . ان الناس سيظنوننا مجانيين

— أتقولين مجانيين ؟ وهل يمكن مهما حاولنا ان نكون أشد جنونا

من العالم كما يبدو في لحظة الراهنة ؟

— ولكننا ينبغي ألا نكون مجانيين على الإطلاق !

— ولم لا . أنا لا أبالي بمارجريت . ولم أبال في يوم من الايام

بما يظنه الناس بي . ولا أعتقد أنك في قرارة نفسك تبالين برأي

الناس فيك أيضا

فهزت رأسها وقالت :

— بل اني أبالي ياكارول . وستبالي أنت أيضا عندما تبلغ من

العمر مابلغت أنا

— ربما لم أعش حتى أكون في مثل سنك

وكان هذا صحيحا . ولذا ارتجفت شفتاها وهي تجيبه :

— فكر قليلا ياكارول ... انك عندما ... او اذا ... صرت في

سني ... سأكون أنا ... في الستين ! الستين ياكارول ! أليس

تدرك مبلغ مافي ذلك من الفظامة ؟ لن أبالي أن يسخر الناس منى .
ولكن الناس سيسخرون منك أيضا . وهذا مالا اعتقد أنى
أحتمله

وكانت عيناه تومضان الآن بمثل النار التى تلمظت بها شفتاه منذ
قليل . وكان هذا كله عجيبا . حتى أنها لم تكذ تصدق أنه واقع
أمام عينيها . لقد طلب يدها وهامى ذى ترقضه ... وكل هذا غير
معقول مثل تلك الحرب التى ترمع أن تأخذه منها لتلقى به بعيدا
وسألها بصوت حاد :

— هل هذا قرارك الأخير ؟ أواقفة أنت انك لا تريدان أن
تتزوجينى ؟

— أنا واثقة أنى لا أستطيع ذلك ياكارول

— حتى ولو كنت مهتمة بى ... قليلا ؟

— ومن قال لك أنى مهتمة بك ؟

وشعرت أن السؤال سخيـف . فقد قرأ سخافته فى وجهها وقال
وهو يقبض على ذراعها ويحدق فى عينيها :

— بريك يامارجريت ...

وظل كل منهما يحدق فى ميني الآخر من غير أن يتكلم . وقصد
لفهما غموض غريب هائل ، اشترك فى خلقه الحب والحرب والشباب
والسن . لغز غامض لاستطيع الكلمات أن تجلو غياهبه ...

وهتف أخيرا هامسا :

— مارجريت ...

وابتسمت وهى تطل من فوقه وشعرت فجأة بفيض من القوة .
ولكنها قوة هائلة مطمئنة لم يستطع أى حب آخر أن يمنحها أياها .
قوة ليس فيها شيء من خداع أوهام الشباب . بل أنها على العكس
شعرت بعمرها كما لم تشعر به من قبل ... وكان السماوات وشاح
تندثر به فيمنحها الامن والراحة

وأخذت تتخلل شعره بأصابعها وتحدث اليه بحنان دافق
وهلوع كامل

— كارول يا حبيبى . ينبغي ألا تكون سخفاء مضحكين . ولقد كنا
سخيفين فعلا ... ولا سيما أنا ... ولا اعتقد أنى أستطيع أن

أتزوج أى انسان . هذه حقيقة واقعة . فهناك يومى وهو كما ترى أعرب متمسك بعزوبته لا أمل فى اقلامه عنها . وسيشعر بالضياح التام لو اتنى تخليت عنه وفارقتة ... أوه ! لا يمكننى ان أحتمل التفكير فى هذا . وهناك أيضا أمى ... فلا بد ان يرعى شئوننا انسان ... وفضلا عن هذا لاشك فى أنك ستعثر على فتاة فى مثل سنك يوما ما . كلا ... لا تعترض ... ان الحب الاول قلما يدوم ... تذكر حبنى الاول ... لقد خيل الى يومئذ انى ساموت غما . ولكن هأنذا الآن قد أوشتك أن أنساه تماما !

ونفض واقفا وهو يضحك فتخطمت تمويذة السحر . وأشعل سيجارة ، وقال لها وهو يلترع الحجرة ذهابا وإيابا :
- أما أنا فقد آمنت فعلا بسبب حبنى الاول

وبصورة ما فارقتة حدائة سنه ورننت ضحكته الغريبة الجافة فى اذنيها رنين الرجولة الكاملة . فآخست أنها مهما منحته فستكون مدينة له بذلك الشباب الغرير الذى جردته منه . كانت مستعدة أن تمنحه فى هذه اللحظة أى شىء على سبيل التعويض عن شهابه المسلوب . ولكنه لم يطلب شيئا . بل قال بعد لحظة صمت :
- يا الهى . انى أكاد لا أصدق انى وجدت الجراة على معاملتك على هذا النحو ... وانى لأسف جدا
- لا عليك . أعزف لى شيئا

- ان سمحت لى فلن أعزف شيئا . كل ما اصلح نه الآن هو الصمت ، ولن أفلح فى أداء نغم مستقيم . وربما كان الافضل لى الآن ان أنصرف

- نحن بعيد العشاء . وأمامك فسحة من الوقت
- لا اريد أن اتعرض لطوارئ الطريق بسبب السرعة !
- تناول كاسا على الاقل قبل أن تذهب
- لا بأس بهذا . وشكرا لك
وذهبا الى حجرة انطعام فصبت له قدحا كبيرا من الويسكى . فقال لها وهو يتجرع كاسه دفعة واحدة :
- مع أحسن التمنيات لمستقبلك
- ولك أيضا

- هل قلت أن يومى وبينج سيمودان غدا ؟

- نعم

- بلغيهما أطيب تمنياتى

- سأفعل

- انى أتركك فى رعايتهما

فضحكت وقالت :

- أحقا ؟

- نعم . ولا سيما فى رعاية بينج

- أنا ... أنا لا أدري ماذا تعنى ؟

فقال وهو يضع كأسه :

- انى لم انسى الطريقة التى كان ينظر بها اليك تلك الليلة ونحن

على المائدة ... ولكن لا بأس . انه أهل لذلك ... أسمحين لى أن

أأخذ هذا الثقاب لأشعل به مصابيحى ؟

فاومات برأسها وتبعته الى الهوى . وخيل اليها ان دهرا قد

انقضى وهو يرتدى سترقه الجلدية استعدادا لركوب الدراجة

البخارية . وقالت له :

- ستكون الرحلة شديدة البرودة فى المراء

وإجابها بلا اكتراث :

- لست أبالى . أنا لا أبالى شيئا

ووقفت بجانبه أمام الباب ريشما أشعل المصابيح وأهد آلة

الدراجة للعمل . فقال لها :

- أخشى أن تصابى ببرد

فأجابه فى أسى وأجم :

- لست أبالى . أنا لا أبالى شيئا أيضا

فنظر اليها وضحك ثم تصافحا . ولم يكن هناك قمر . وإنما هى

السماء أزرقاء الداكنة الصافية الاديم الموشاة بالنجوم . وقال

كارول :

- وداعا يمارجرى !

- وداعا ياكارول !

وكان هذا كل شيء . وبعد ذلك انفجر هدير الدراجة البخارية

يهتك هدوء الليل ثم طواه الظلام فوق دراجته . وظلت هي واقفة حيث كانت الى ان اختفى عن ناظرها آخر بصيص لانوار الدراجة . ثم انتظرت بعد ذلك ايضا لانه خيل اليها ان صدى هدير الدراجة يتردد بين التلال . فكان لابد لها ان تترثى الى ان يتلاشى هذا الصدى . ثم عادت ادراجها الى الدار وهي تسمر باعياء شديد يستولى على سائر أطرفها



وانقضت عشرة ايام بعد رحيل كارول من غير أن تسمع عنه شيئا أو تصلها رسائل منه . ولم تكن تتوقع أن يكتب اليها . فلم يكن ثمة اتفاق بينهما هلى شيء من ذلك . ولكن في اليوم الحادى عشر جاءتها رسالة منه يخبرها فيها أنه لم يشترك بعد في قتال حقيقى، وان كان دوى المدافع يصل الى أذنيه . وأن جميع الجنود في جميع الجيوش المتحالفة يعتقدون أن الحرب ستضع أوزارها قريبا . وأن صحته على خير مايرام . وأنه يستمتع بالحياة « على نحو ما » ... وكان هذا كل ما فى الرسالة لان نصف السطور على الأقل طمسته يد الرقيب الحربى

وعلى الفور كتبت اليه ردا عاديا وديا حافلا باللفظ والثروة حسدت فيه جميع انباء الاسرة كما وردت على خاطرها :

... - وقد اسف بومى اسفا شديدا لانه لم يتمكن من مقابلتك قيل ان تسافر . وقد طلب منى أن ابلفك أطيب تمنياته . هل هناك أى شيء تحتاج اليه أو أى شيء تحب أن نرسله اليك ؟ أن ذلك خليك أن يدخل السرور العظيم على انفسنا ... فنحن نشعر بالوحدة هنا كما هى العادة عند اقتراب الخريف . ولكن لدينا أعمالا كثيرة . وسبائى بينج ولىلى للمشاء فى الأسبوع القادم ... وهذا معناه مجهود اضافى للطاهية ولى ... وابن أختى بيتى الذى قابلته فى المرة الاخيرة عندما كنت فى زيارتنا دخل المدرسة ، ويبدو سعيدا جدا بذلك ... وأمى حالتها كما هى وقد طلبت منى أن ابلفك تحياتها ..

وقضت مارجريت طيلة بعد الظهر بعد ارسال ذلك الخطاب فى مساعدة الطاهية بالمطبخ . وبعد الشاى ذهبت لتعد أمها لاستقبال

ينج . واستقبله بسرهما دائما . وكان موعد العشاء في الثامنة . وقبل الثامنة بربع ساعة ذهبت الى حجزتها لترتدي ثيابها . وبينما هي تمسح شعرها حملت اليها الخادمة خطابا وصل في تلك اللحظة . وعرفت خط كارول وقرأت الاختام العسكرية على الظروف فارتجف قلبها وهي تمزق الغلاف . ولكن أول عبارة وقعت عليها عينها كانت : « أنا بخير وسلام »

فكان لرد الفعل اثر قوى حتى لقد كاد يغمى عليها فارتمت فوق الفراش مسلوقة القوة . وبعد قليل استطاعت ان تقرأ الرسالة . « عزيزى مارجريت :

« هذه أول فرصة تسنح لى بالكتابة اليك منذ أيام ، وأنا بخير وسلام . ولكن الموضوع الذى ناقشناه فى مقابلتى الاخيرة لك لم يزل له تأثير قوى على نفسى ، ويسبب لى اضطرابا كثيرا . وقد خيل الى فى البداية انى سأستطيع تناسيه . ولكنى لم أستطع . واشعر أن كل شيء هنا يتوقف على هذا الموضوع . وانى أعلم أنه من الاجحاف الشديد بك أن أقول لك هذا الآن . ولكنها الحقيقة . فليتكنك تستطيعين على الأقل أن تمنحينى ولو نصف وعد . فإنه سيمنحنى املا كافيا ، ويشعرنى أن الحياة ممكنة ... أعلم انى أسأت عرض المسألة فى هذه السطور . ولكنى وأثق أنك ستقدرين الظروف التى اكتب فيها . وقد كانت لديك دائما قدرة فائقة على الفهم والتقدير . وربما لم تتح لى بعد هذا فرصة للكتابة اليك مدة طويلة من الزمن ... »

وقلت ذلك سطور شطبها الرقيب فلم يترك الا الامضاء وخيل اليها أنها لم تفهم شيئا من القراءة الاولى . ولاسيما لان الرسالة كلها مكتوبة بجبر بنفسجى وبخط سريع مضطرب واعادت تلاوة الرسالة . وقيل أن تتمها سمعت وثين الجرس فى الطابق الاسفل يدعو الطاعمين الى المائدة

اذن قد وصل ينج وليلى !

ووضعت الرسالة فى درج مكتبها الصغير واغلقتة بالفتاح ، ثم اسرعت تتم تصفيف شعرها

الفصل الحادى عشر

مرحان النصر

وعلى مائدة العشاء بدا كل شىء مهتزا غامضا فى عينيها ، فصار بينج ذاسحنة بشعة ، وكان صوته المرتفع ، وضحكه المرتفع ، يسيطران على الحجرة . والى جواره جلس بومى بادى السعادة ولكنه متوتر الاعصاب شيئا ما ، ولذا لم يكن حديثه طلقا يسيرا كعادته ، وكانت أمها جالسة بجوار النار تحرق فى المائدة ، وعلى شفيتها ابتسامة ثابتة لا تتغير . وبين الحين والحين كان بينج يلتفت اليها فجأة ويسالها :

— اليس هذا رايك أيضا يا أمى ؟

فقد كان بنادى حماته بهذا الاسم دائما ، وكانت عند سماع هذا السؤال تتصاب عضلاتها ولامحها كالقطة المتوجسة وتقول :

— نعم .. نعم يا بينج .. انا متفقة معك فى رأى جسدنا يا بينج وكانت ليلي جالسة بجوار مارجريت ومجوهراتها الثمينة الكثيرة تتلالا . لقد تخلص عنها جمال صباها الان ، لان بينج والاطفال استنزفوا حيويتها ونضارتها ، ومع هذا ظل بينج حنونا كريما على طريقته الخاصة . فهو لا ينفك يشتري لها الهدايا الباهظة الثمن . وكانت هديته الاخيرة لها قلادة يزيد ثمنها على ألف جنيه ، كانت ليلي مزهوة بها ، تريها لكل انسان وتطرى رقة زوجها وطيبة قلبه

وفى نهاية الوجبة قدمت الاشربة المسكرة ، فاموات الام كعادتها الى كوكسون كى يدفع مقعدها ، ولكن بومى قال :

— ابقى قليلا يا أمه !

وكان غريبا جدا ان يحدث منه هذا . وانتظر الى ان انصرف كوكسون ، ثم قال بعد ان صب لنفسه ولبينج كأسين من البورت

- الحقيقة ان لدى مسالة اريد أن أفاتحكم فيها جميعا !
وكان وجهه محتقنا ، وهو يرفع الكأس الى شفثيه ويشربها جرعة
واحدة حتى الثمالة . وقالت الام بصوتها الخفيض :
- نعم يا بومى ... نعم
فقال بصوت يكاد لا يسمع :
- كنت فى المدة الاخيرة افكر فى الزواج .
وظهرت الدهشة على وجه بينج فمال الى الخلف فى مقعده بحركة
أحدثت صوتا مسموعا ، اما مارجريت فازداد احساسها بالهدوء
وكانها صخرة تضطرب من حولها الامواج من كل الجهات . وقال
بينج :
- اتمرح يا بومى ؟
- كلا . كلا . بل انا جاد كل الجد . لقد كنت أفكر حقا فى هذا
وكان هذا آخر ماكانت تتوقع أن تسميه ، ولكنه فسرلها ملاحظته
على أخيها فى المدة الاخيرة من الشرود ونوبات الضحك والمرح المتقطعة
لقد كان الرجل عاشقا . وبدا لها هذا فى أول الامر أدنى للضحك .
ولكنها أحست وراء هذه الرغبة فى الضحك نوعا من القلق والشعور
بالصدمة
- ولكنك يا بومى يجب أن تحدثنا عنها . من هى أولا ؟
- لا اظنك تعرفينها يا اماه . اسمها مس بريذويت . وهى فى
المستشفى العسكرى القريب من هنا
فصاح بينج :
- لا اظنك تعنى تلك الفتاة القصيرة البدينة التى تقوم بالتدليك
فى المستشفى العسكرى ؟
- هى بعينها . وهذه هى المرأة التى سأتزوجه . . . وقد خطر
لى أنه من الافضل أن اخبركم مجتمعين بهذا النبأ
وافاق بينج من ذهوله فصاح :
- وماذا تنتظر منى الآن ؟ ان اهنتك مثلا ،
- هذا شئ مرجعه اليك
- ولكن الفتاة فى نحو العشرين فيما اظن ؟
- اعتقد أنها فى الرابعة والعشرين

— وای شيء هى فيما عدا انها مدلكة ؟ من اين انت ؟ ما أسرتها ؟
— لا أدرى ما أسرتها ، وماهى أسرتك انت ؟

فجاء هذا السؤال اللاذع غريبا جدا على لسان بومى الذى لم
يسمعه احد فى حياته كلها يقول كلمة مسيئة كهذه ، مما جعل بينج
لا يكاد يصدق اذنيه ، وطفعت دهشته على غضبه فقال :

— ماذا جرى لك ؟ يجب ان تدرك ان هذا الزواج غير مناسب
— يؤسفنى انه لا يسرك ، ولكنه سيتم وفى التاسع عشر من الشهر
القادم يا بينج

— اتعنى أنك تقدمت اليها وقبلتك وان كل شيء قد اتفق عليه ؟
— هذا هو الواقع

— اذن انت وربى أحقق الحمقى !

فكاد الدم يتفجر من ملامح وجه بومى ، ثم هز كتفيه هزة يسيرة
وقال :

— شكرا لك يا بينج

— فكر يا رجل فى عمركما ! وفى طبقتكما أيضا • فسوف تكون لهذا
اهميته الكبيرة ! ان معرفتى بالفتاة سطحية جدا وليس عندى اى
شيء ضدها ، ولكنى لا أستطيع ان اتصورها فى مكانها المناسب فى هذه
الدار ! ستجعل من نفسك ايها الرجل اضحوكة للمقاطعة كلها
الرجل الذى تزوج مدلكته ! وهذا ليس بينه وبين الزواج من طاهيته
الا خطوة واحدة ! الا تدرى ما الذى تريد ان تصنعه بنفسك ؟ ام
انت مفتون بها حتى انك لم تعد تبالي ما تصنع ؟

وكانت مارجريت منذ أعلن بومى النبا ثابتة فى مكانها ، تحاول
جهدها ان تتقلب على دهشتها ، وكانت أكبر بواعث هذه الدهشة
ان بومى لم يطلعها على سره من قبل ، وانه تقدم لخطبة الفتاة واتفق
معا على الزواج من غير أن يصدر عنه تلميح • وألمها ذلك ، ولكنها
فى الوقت نفسه كانت تسأل ضميرها اى حق لها فى أن يفضى اليها
من أسرارها بأكثر مما تفضى اليه من أسرارها ؟ ولم تجد جوابا مقنعا
عن سؤالها ، ولم يترك لها صوت بينج العالى فرصة للتفكير الهادئ ،
ولكنها وجدت نفسها تنهض وتدور حول المائدة حتى تصل الى مكان
بومى • ووجدته يحملق فيها بدهشة يكاد يمازجها الخوف ، ثم

قالت له وهي تهش في وجهه :

- دعنى يا بومى أكون أول من يتقدم اليك بالتهنئة . أنى أهنتك
بإخلاص قلبى

وتناولت يده وابتقتها في يديها برهة ، فوجدتها باردة كالرخام
فالتفتت نحو بينج وقالت له وهي تواجه وجهه الضخم ، وعينييه
الزرقاوين القويتين :

- اعتقد يا بينج أنك تجاوزت الحد كثيرا . قلبومى الحق الكامل
فى ان بتزوج اية امرأة يشاء . فلماذا تتدخل فى شأنه الخاص ؟
فضحك بينج ، وقال :

- انا اعلم الناس يا عزيزتى مارجريت انك أحصف من ان تقرى
زواج بومى من هذه الفتاة . فلماذا تتظاهرين بغير ذلك ؟
- ليس من شأنى ان أقر أو أعترض ، وليس هذا من شأنك
أيضا . فلنا جميعا الحق فى الزواج ممن نريد ، كما كان لك هذا
الحق عندما تزوجت من ليلى
- اذن أنت تؤيدينه ؟

- نعم تأييدا مطلقا . انى أؤيده ايا كانت الفتاة التى يتزوجها .
ولا أدرى كيف جرؤت على ان تكون وقحا الى هذا الحد معه !
- لقد أعربت له عن رأى الصريح يا مارجريت ، وهذا كل شيء
وهأنتى تبدلين لى الآن رأىك الصريح فى ، ولا اعتراض لى على هذا
- انه لم يكن رأيا صريحا . بل انك كنت كعادتك تفرض ارادتك
ولن نخضع أنا وبومى لارادة أحد يا بينج ، وكلما أدركت ذلك سريعا
كان ذلك أفضل لك !

فهز كتفيه الضخمتين وابتسم قائلا :

- وهو كذلك . هذا رأىك أنت . والآن ما هو رأى الآخرين ؟
اليس لهم الحق أيضا فى أن يقولوا شيئا ؟ ما رأىك أنت يا ليلى فى هذا
كله ؟

ونظر الى زوجته التى أجابت وكأنها تلميذة تردد درسا محفوظا
- انى أوافقك يا بينج . واعتقد انه من السخف اقدام بومى على
الزواج من فتاة كهذه !
- وانت يا أمى . ما رأىك ؟

ولكن السيدة العجوز كانت قد استغرقت في النعاس . وهكذا كان شأنها اذا حل موعد نومها مهما كانت المناقشة حامية ومثيرة . بل انها قد تنام فجأة وسط جملة من كلامها هي ، فقال بومي :

— يحسن ان نجعل كوكسون يأخذها الى حجرتها وكانت لحظات انتظار حضور كوكسون ثم دفعه المقعد كافية لتهدة حدة التوتر . وتبينت مارجریت ذلك ، فقالت وهى تهتم بالخروج :

— يجب ان اذهب لاطمنن على راحة امي . طابت ليلتكم وتركت الجميع يتمون احتساء اشربتهم ، وبعد ان فرغت من عمليات الاشراف المعتادة كل ليلة ، دخلت حجرتها ، وطالعت خطاب كارول مرة أخرى . وتبينت ان صور الرجال الثلاثة كارول وبينج وبومي تراود ذهنها ، وتوجب انحاءه ، كأنهم نمور تدرع اقفاصها الحديدية . فقامت الى النافذة وفتحتها . وكان القمر قد صار بدرًا ، والليل رطبًا ساكنًا

وفي نحو الساعة العاشرة طرق الباب بومي ودخل عليها متوهج الوجه بالدماء التي تكاد تطل من ملامحه . وفي عينيه بريق . وكان واضحًا انه يعانى من التوتر العصبى ، ويتوق الى التفريج عن نفسه بالحديث معها ، ولم تكن هي اقل توترًا منه . واشعل سيجارة وجلس بجانبها ، فقالت له :

— هل انصرف بينج ويلي ؟

— نعم

— اظنهما شعرا بوجوب الانصراف بعد الذى قلته لهما . ولكن كان ينبغي ان اوقف بينج عند حده . مع اني اكره هذه الاصطدامات — لقد احسنت جدا بالوقوف الى جانبي يامارجریت — هذا اقل ما افعله بعد كل هذه السنوات التى قضيناها معا — وهذا ما اخجلنى . فقد شعرت بعد اعلان النبأ امام الجميع انه كان من الواجب ان اخبرك انت أولا

— هذا شيء لاقيمة له . فلا تعذب نفسك بسببه . فاعلم ان كل ما يهمنى هو سعادتك . ولا يعينى ماهى الترتيبات التى ستتخذها للزواج فالهم ان تكون موفقا . واعلم انى كثيرا ما سألت نفسى لماذا

لم تتزوج !

- وأنا أيضا كثيرا ما سألت نفسي هذا السؤال نفسه بشأنك !
- أنا يا بومي ؟ لو أنني أردت أن أتزوج لتزوجت . وهذا من
الاسباب التي جعلتني أقف في صفك . والان حدثني عن بولين
وشعرت كأنها أم تشجع طفلها على الاعتراف بأسرارها . فافضي
اليها بمعلومات قليلة بعد استدراج كثير . قال لها ان بولين فتاة
من لندن يتيمة الابوين . وان والدها كان مستخدما في شركة للتأمين
وان الاسرة محترمة ، ولكنها ليست على مستوى اجتماعي بالطبع
- اني واثقة انها ظريفة والا لمللجذبك اليها !

- نعم هي ظريفة . وان كان هذا لا يبدو لكل انسان طبعيا . لقد
قال عنها بينج انها بديئة ولكني لا أظنها بديئة . وان كانت طبعيا ليست
في نجافة ليلى

- هل هي مغرمة بالموسيقى ؟

- اظن هذا

- وهل تحب الحداثق ؟ سيكون لطيفا جدا ان تجمعكما هذه
الهواية !

- أظنها تحب الحداثق أيضا

- ليست في الرابعة والعشرين كما قلت ؟

- بلى . وأنا في الرابعة والاربعين . وهل لهذا أهمية ؟

- لا أظن . ما دام هناك تناسب بين الشخصين في كل شيء آخر

- أتعنين هذا حقا يا مارجريت ؟

- أعتقد هذا

- هذا جميل . وانت على حق . فما قيمة فارق السنوات ،

وخصوصا حينما يكون الرجل هو الاكبر سنا ؟

- هل اني اذهب الى ابعد من هذا يا بومي ؟ واعتقد ان هذا

الفارق لا أهمية له حتى حينما تكون المرأة هي الاكبر سنا

- حقا ؟

- ولم لا ؟

- هل اذا كانت بولين في الرابعة والاربعين وأنا في الرابعة والعشرين،

الا يكون ذلك سخيفا ومضحكا ؟

... انتظني ذلك ؟

... الا ترين انت ذلك ؟

... ربما .

... اننا على اتفاق في جوهر الموضوع . وهو أنك لا تريننى أسن بكثير
من أن اتزوجها !

... انى يابومى اعتقد ان البشر لا يمكن أن يكونوا أسن من أن يقدموا
على أى شىء لديهم القدرة عليه والرغبة فيه

... عظيم

... واذا لم يكن لديك مانع . فانا احب ان ارى بولين متى يمكننى
ان اراها ؟

... انت رائعة حقاً يامارجريت . لم يخطر ببالي أنك ستقابلين النبا
بهذه الروح . وسأتى بولين معى غدا ان كان هذا يوافقك . ومن
المستحسن أن تأتى لتناول الشاي ، لان لديها عملاً فى المستشفى فى
الصباح وفى المساء . سأتى بها بعد الظهر . ولكن لا تخبرى أمى . اذ
يحسن أن تقابلها فى فرصة أخرى

وتركها بومى ليذهب كمادته كل ليلة الى الحديقة الشتوية وسمعته
وهو يهبط الدرج يصفر بأنغام لحن شاع فى المدة الاخيرة ، فأدركت
ان كلامها أسعده كثيراً . ثم طالعت رسالة كارول مرة بعد مرة الى
ان أصبحت كل كلمة من كلماتها كأنها حيا يتعلق بها وهى جالسة
وحدها فى حجرتها :

« لو أنك فقط فتحت لى باب الامل ووعدتنى نصف وعد ... »
وفجأة شعرت انها لا تبالي مما سيقوله بينج او بومى او أمها او
العالم كله . نعم انها ستقدم على ذلك العمل الباسل الجميل الذى
تشعر ان لديها القدرة عليه والرغبة فيه : ستتزوج ! ستمنحه
نفسها جسداً وعقلاً وروحاً . لن يعينها بعد ذلك شىء . لان كل ما
عدا هذا سيكون بمثابة خيانة للانونة القصوى التى تشعر بها فى
اعماقها

وعلى فرض انه ستمها يوماً وقد علت بها السن وهو لم يزل فى
ريعان شبابه ، فلن يضيرها ان تتركه يومئذ لامرأة أخرى ، وسيسعدنا
ان تعيش بجمال الفعل الجريء الذى واتها الشجاعة على تحقيقه !!

وجلست فكتبت اليه رسالة قصيرة بسيطة ... تخبره فيها
انها قد غيرت رأيها وانها سوف تتزوجه . وذهبت بنفسها فألقت
بالخطاب في صندوق البريد خارج أسوار البيت . فلما فرغت من
ذلك الامر الذي لا رجوع بعده ، أحست بالسعادة تغمر قلبها وتفيض
منه . لقد كانت هذه فرصتها الوحيدة . وقد واثتها الشجاعة على
انتهازها !

ولما عادت الى البيت استقبلها بومى فى البهو وسألها :

— هل كنت تنتزحين ؟

فاومأت اليه برأسها . فقال :

— لقد أفادك استنشاق الهواء فائدة هائلة . انظرى فى المرأة الى
لون بشرتك . ياله من لون رائع ... والحقيقة أننا كلينا لا يبدو
علينا سنا

وعقد ذراعه بذراعها واوتفها بجانبه امام مرآة وصاح :

— انظرى ! من ذا يقول أننا كلينا قد تجاوزنا الاربعين ؟ ولكننا
تجاوزناها . ومع هذا لا اعتقد أننا كنا احسن صحة ولا انظر منظرا
مما نحن الآن !



وانى بومى ببولين لتناول الشاي بعد ظهر اليوم التالى . وكانت
كما قال بينج وكما انكر بومى بدينة قصيرة ، ولكنها وسيمة ، ولها
صوت يدل على ثقافة وذكاء . ولقتها فى الحديث مهذبة راقية ،
وشعرها جميل ، ويدها بديعتان للغاية . فشكها العام ليس منفرا
انها مقبولة ولكن ما الذى حمل بومى على التفكير فى الزواج منها ؟
هذا ما لم تستطع مارجريت ان تتصوره

وكان الجو جميلا فأخذ الثلاثة يتنزهون بين خمائل الحديقة قبل
تناول الشاي . وتحدثت بولين كثيرا عن العمل فى المستشفى . ولعل
هذه كانت وسيلتها لاختفاء ارتباكها ، وكان بومى يعتمد ان
يعامل بولين فى الظاهر كما يعامل اى انسان آخر ويصر على اخفاء
اعزازه وحبه فبدا فى كلامه معها مهذبا مجاملا جدا كعادته مع جميع
الناس . لم يرفع التكليف . اما هى فلم تستطع مارجريت ان تدرك
حقيقة شعورها نحو بومى ، وهل قبلت الزواج منه عن حب ام طمعا

فى المال والمركز الاجتماعى . انها لا تبدو ذات دهاء . ولعلها قبلت
الزواج منه لان احدا سواه لم يطلب يدها

وبعد الشاى انتهزت مارجريت فرصة توجهه بومى لاعداد السيارة
كى يقلها الى المستشفى ، وقالت لبولين :

— أقدم اليك التهنة وآمل ان تكتب لكليكما السعادة

. اشكرك كثيرا جدا . واطننا سنسعد معا لانه انسان ظريف

ولم تمنح الفرصة لمزيد من الكلام بينهما ، لان بومى عاد ، وسأل
مارجريت عن رأيها فى بولين قبل ان يصحبها ، فقالت له :

— أكرر لك التهنة . وهى فى الواقع جميلة . وما ابدع هاتين

اليدين !

وبعد انصرفهما احست احساسا جازما ان بومى مهما كان لطيفا
ظريفا فان يستطيع فهم علاقتها بكارول . فلا بد ان يفاجئه ذات يوم
وهو بين ازهاره فى الحديقة ويعلمه برغبتها فى الزواج . وكذلك
سيواجهان معا بينج وجميع الناس : باعلان اشبه بانذار اخير منه
باعتراف أو انقضاء

وشهدت الايام الاخيرة من اكتوبر تحول الحرب الى طوفان من
الانتصارات التى لا يكاد يصدقها العقل . فكانت اخبار النصر هى
المسيطرة على الصحف والتليفون وأحاديث المائدة . وكان بومى
متحمسا جدا لهذه الانباء فجعله الحب والتحمس شديد الرضا عن
نفسه ، وراضيا حتى عن بينج . وذات يوم قال لها وقد انقضى اسبوع
على حفلة العشاء التى اعلن فيها رغبته فى الزواج :

— اتعلمين يا مارجريت ان بينج صار لطيفا معى جدا فى الايام الاخيرة
ودعانا للذهاب الى بيته وتناول العشاء فى الاسبوع القادم . انت
وانا وبولين ؟ واطننا طريقته الخاصة فى التلويح بغصن الزيتون
وكان كلامه عن بينج بلهجة التلميذ الذى يتحدث عن الناظر المهرب
المحترم . . !

واقامت تلك المأدبة فى مساء ٣ نوفمبر . وفى ذلك اليوم نفسه
وقعت النمسا الهدنة وسلمت تسليما كاملا . واحتل الطليان تريستا
واقام مجلس وطنى فى المجر . وتمرد البحارة الالمان فى كييل ،
وتقدمت القوات الفرنسية والامريكية ثمانية اميال على طول الجبهة

الغريبة ، وفي نهاية السهرة ، بعد العودة الى البيت في الساعات الاولى من الصباح ، قال بومى لمارجريت ان الليلة كانت رائعة وظلت مارجريت في انتظار خطاب من كارول وان كانت في الظاهر تقاوم كل احساس بالتطلع أو القلق . لانها كانت تعلم ان الحرب تؤخر الخطابات . وان الاحداث الاخيرة تساعد على مزيد من التأخير ولذا لم تشعر بمرارة كبيرة عندما اقبل الاسبوع الثانى من نوفمبر ولم تصلها رسالة من كارول

وفي هذه الاثناء كانت الحرب تتجه اتجاها سريعا الى نهايتها المحتومة . وكان ذلك عسيرا التصديق على الناس الذين تعودوا استمرار المعارك وتعاقبها تلك السنوات الطويلة . لم يصدقوا ان الحرب يمكن ان تنتهى كما بدأت في لحظة معينة ، من ساعة معينة ، في يوم معين !!

وفي ذلك اليوم المكفهر . يوم الاثنين الحادى عشر من نوفمبر كانت مارجريت جالسة تحرق الشيكات لمصروفات البيت الشهرية ، عندما رن جرس التليفون ، وكان المتحدث بومى من مكاتب مصنع السيارات في جلوسستر :

— هناك شائعة قوية عن احتمال توقيع هدنة في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم . وقد تتمخض هذه الاشاعة عن لا شيء . ولكنى قدرت انك تحبين ان تعرفيها . والعمال هنا بسبب هذه الشائعة لا يستطيعون العمل . وهذا طبيعى فيما اعتقد . قولى للسائق روجرز عندما يأتى لاحضارى ان يأتينى بطلبة سيجارى ، فقد تركتها على المنضدة في حجرة نومى

وفي الحادية عشرة رن جرس التليفون مرة أخرى وسمعت صوت بومى مختلطا بصفارات المصنع وصياح مئات الناس :

— تم توقيع الهدنة يا مارجريت . اتسمعين صفاراتنا وهتاف العمال ؟ الجميع هنا يكاد يخرجهم الفرح عن صوابهم . سننقل المصنع بقية اليوم . ارسلنى روجرز فوراً لياتى بى

انتهت الحرب اذن . وغمرها شعور بطيء متمهل من السعادة . كان شعورا قويا بلغ من شدته انه سبب لها الما . لقد توقفت المدافع وانتهى خطر الفارات ولم يعد هناك خطر يهدد كارول في الجبهة .

انها تستطيع الان ان تشعر بما لم تشعر به من قبل بالعاطفة الصافية القوية التي تربطها به وكأنها كانت لا تجرؤ على حبه والحرب تهدد سعادتهما . فكانت تلك السعادة كانت محتبسة ، ثم أفرج لها عنها دفعة واحدة

ورن جرس التليفون مرة ثالثة ، وتحديث بولين من المستشفى . وكانت شديدة الفرح والحماسة . كانت تتكلم كالمجنونة :

— أريد ان أرقص وأقفز أو أمشي على يدي . أريد ان افعل اى شيء لقد كلمت بومى الان فى المصنع ، وطلبت منه ان يأخذنا لقضاء السهرة فى لندن الليلة ، فلا بد انه ستكون ثمة احتفالات تستحق المشاهدة فى الويست انڈ . فهل تأتين يامارجريت ؟

— اتريدينى حقا أن آتى ؟

— طبعاً أيتها البلهاء ! ثم ان بومى لن يذهب اذا لم تات انت فأخلاقه لا تسمح له بالسهر مع خطيبته من غير حراسة ! وخصوصاً اننا قد نسهر الى الصباح . . . استعدى على كل حال لان بومى يرى ان نذهب بعد الغداء مباشرة

وجاء بومى لتناول الغداء وأخذ يشرح لها مبررات تلك الرحلة ، وكأنه يعتبر عن شيء سخيف :

— أنا لا أهضم المظاهرات والزحام . ولكن بولين مصممة على الاشتراك فى أفراح الليلة فى لندن . ولاشك انه سيفرح قلبها ان ترى لندن متلألئة بأنوارها لأول مرة بعد الحرب . ويحسن ان تأمرى كوكسون باعداد بعض الطعام لنحمله معنا . فقد لا نستطيع الليلة ان نحصل على طعام يستحق الذكر فى زحام لندن . واعتقد اننا سنأخذ السيارة الليموزين الكبيرة ولا اظنك تضيقين بالذهاب معنا . كلا على الاطلاق

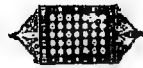
وشرب بومى نصف زجاجة الشمبانيا ، ثم ذهب الى الحديقة ليتفقد أزهاره وأشجاره . ودعا مارجريت للطواف معه ، ولكنها اعتذرت وصعدت الى حجرتها كي تبديل ثيابها . ثم نزلت الى قاعة الجلوس ، وقرأت احدى المجلات فى انتظار عودته . واصدرت الى كوكسون تعليمات بشأن المشروبات التي يضعها فى السيارة مع الطعام

وبعد لحظات رجع اليها كوكسون وفي يده بضعة خطابات وصلت
لتوها . وكان أحدها دعوة لحضور سوق خيرية راقصة . وكان
هناك خطابان آخران يحويان فواتير من التجار ، أما الخطاب الرابع
فأدهشها في البداية لأنه يحمل طابع بريد فرنسا . وبخط يد
لا تعرفه ولم تره من قبل وقضت الخطاب وقرأت منه

« عزيزتي مس فرينشام

» أكتب اليك هذا بتكليف من المسكين كارول ، لقد كان أعز
أصدقائي . وكنا كلانا في غارة جوية . . . وطلب مني اذا حدث له
مكروه أن أكتب الي خطيبته لأخبرها أنه كان في قمة السادة بسبب
الخطاب الذي وصله منها في الصباح قبل قيامنا بالغارة بساعة
واحدة . وسألني عنوانك . ولم يعد المسكين . ولنا فاني أكتب
اليك لأقول أن وفاته كانت سريعة ولم يشعر بأذى الم . .
وليم ت . جيفرسون

والقت براسها على ظهر المقعد الذي كانت تجالسه عليه . ومن
بعيد جاءها صوت بولين ويوسي يناديانها كي يربوا السيارة الى
مهرجان النصر



الفصل الثاني عشر

صدام عنيف

أقبل بومى يخترق الحدائق فى بزة أنيقة غاية الاناقة ، ودبوس
ربطة عنقه الماسى يلعب فى ضوء الشمس . ورائته مارجريت من بعيد
حينما غادر سيارته عند المنعطف وتقدم يمشى نحو الدار فى خطوات
سريعة خفيفة ، والابتسام يفيض من وجهه وكأنه صورة أخرى
من اشراق السماء فى ذلك اليوم الدافئ الشمس من أيام يولية
ولما أصبح على مسافة عشر خطوات منها خلع قبعته ، فعبث
الهواء عبثا يسيرا بشعره . وهتفت مارجريت :

— أهلا بك يا بومى

— لقد خطر لى أن أمر بك لاستفسر من أحوالك !

وكانت هذه عبارته التقليدية التى يبادرها بها كلما حضر

— هل كنت تجرب سيارتك الجديدة ؟

— نعم ! انها آخر طراز فاخر . وبها كل التحسينات . كيف

حالك ؟

— على أحسن حال . وأنت كذلك فيما أرى

وكانت مارجريت تجمع ازهارا من الحديقة ، ازهارا حمراء

فحملتها فى يدها واقترحت عليه التجول فى الحدائق . وهو الاقتراح

الذى كانت تعرضه عليه فى كل زيارة فكان يقبله دائما فى تلهف .

ويظل يسأل عن آخر أنباء الازهار الجديدة

وإثناء التجوال سألتها :

— كيف حال الوالدة ؟

— كما هى ... وكيف حال بولين ؟

— على ما يرام . وهذا يذكرنى بأنى وعدتها أن أعود لتناول الغداء

في ساعة مبكرة ... والحقيقة يامارجريت اني اريد ايضا ان احدثك
في موضوع معين ...

— عن بولين ؟

— كلا . لقد سويت هذه الموضوعات . أو على الأقل تركنا
الخوض فيها . كلا يا مارجريت . ليس حديث اليوم عن بولين .
بل عن بينج ...

— بينج ؟

— نعم . ويحسن ان اكون صريحا معك . لاني ساكلمك في
موضوع وعدت بينج وعدا قاطعا الا اخبرك به . فهل ترين ان ذلك
يجوز لي ؟

— عزيزي بومي . ياله من سؤال توجهه الى امرأة لديها نصيب
طبيعي من الفضول التهورى ! كيف يخطر لك ان جوابي سيكون لا ؟
فضحك واحمر وجهه قليلا ثم قال :

— الحقيقة ان الرجل على شفا انهيار عصبي فيما يلوح لي وان
كان من الصعب التصديق بأن بينج يمكن ان يصاب بانهايار عصبي .
ولكن امتن الرجال لابد ان ينقطع اذا اشتد الضغط عليه . ولاشك
في ان بينج اكتنفت حياته بالتناوب والمنفصات الضخمة في الفترة
الاخيرة . من سوء الاحوال التجارية الى الاضراب العام ... فضلا
عن متاعب الاسرة

— هذا صحيح . واني مسرورة لحصوله على لقب البارون . فهو
في الواقع يستحق ذلك

— وهذا اللقب أيضا اتعبه الحصول عليه . لان الكثيرين كانوا
يحاربونه . حتى انه منذ شهر يُنس تماما من صدور الانعام . ومنذ
ايام اقلت زمام اعصابه من يده وجعل يصيح في المكتب ان الدنيا
كلها تحاربه ، وان القدر يعاديه ، وان رجال الحكومة والمعمال
وأولاده وأسرته كلهم ضده . وخص بالاشارة ... خصك انت !

— انا ؟ هل قال اني ضده ايضا ؟ ولكنه على خطأ في هذا !

— لقد اعتذر بعد ذلك ، واستخرج مني وعدا بالا اخبرك . ولكني
اعتقد ان هذه الفكرة راسخة في اعماقه . وربما نشأت لديه من
كونك لا تدعيه في المدة الاخيرة الى غداء أو عشاء

- وأنت أيضا لم تدعه مرة واحدة ؟
- وهو أيضا لم يدعنى الى بيته مطلقا
- وهل تذهب ان دمالك ؟
- غالبا لا . فانا لا أستريح لتمضية الوقت معه . وليس هذا لاني لا أحبه أو لا أحترمه أو لا أعجب به ، بل ليله الى السيطرة بصورة لا تستريح اليها النفس
- وهذا شعورى . ولكنه مخطيء في اعتقاده اننى أحاربه . فمئذ وفاة ليلي وأنا أتمنى أن اخف لمعوقته . ولكنى لم أقدر أنه بحاجة الى معونة . فهو يحى العادة يضيق بكل من يبدى له أنه عاجز عن القيام بكل شيء على أحسن وجه
- هذا كله صحيح . فهذه طريقته وهذا طبعه . ولكن يخيّل الى أنه لو أمكنك أن تفعل شيئا يبين أنك لست ضده كما يظن ، كان ذلك أفضل
- وماذا تقترح في هذا الشأن ؟
- انا لا أريد أن تصنع شيئا تكرهينه . ولا أن يكون تصرفك واضحا بحيث يدرك اننى فاتحتك في الامر . مجرد لفظة . واعتقد ان الانعام عليه بلقب بارون يعتبر فرصة مناسبة لهذه اللفظة
- وكيف ذلك ؟
- تذكرين اننا كنا في الخارج عندما صدر الانعام ، فلم يتح لنا الا أن نبعث اليه برسائل التهنية . ونحن الآن في أرض الوطن . وفي دارنا . فربما كانت مادبة عشاء صغيرة ...
- هنا ؟
- طبعا . فهذا هو اهم ما في الموضوع . كي توجهني اليه الدعوة . وطبعا توجهيها لى ولبولين أيضا . وان كنت أتوقع منها ألا تحضر
- سأفكر في الامر يا بومى ..
- وبعد انصراف بومى ظلت معظم فترة الصباح تفكر . فترأى لها ان الحظ قد تنكر له في الفترة الأخيرة فعلا . وكانت البداية فشله في الانتخابات ثم ماتت ليلي في السنة التالية . وكانت وفاتها فجأة على اثر اصابة بالانفلونزا . وأعقب ذلك اضراب عام بين عمال جميع المصانع . ثم اضراب عمال الفحم . ثم ارتفاع أسعار المطاط ، وكثير

من المواد الأولية ارتفاعا جعل بينج يشكو ويتلذذ ، ولولا الانعام عليه بلقب بارون لكنت حالته المعنوية في منتهى البؤس . وعن لها أن اقلمة حفلة عشاء كما اقترح بومي ابتهاجا بحصول بينج علي ذلك اللقب عمل يدل على المجاملة ، وينعش معنوياته

وفي المساء تحدثت الى بومي بالتليفون ثم أرسلت رفاع الدعوة الى مأدبة العشاء الصغيرة في مساء التاسع عشر من الشهر . وكما توقع بومي اعتذرت بولين . لان حالتها النفسية بسبب الحفل لا تسمح لها بحضور مثل هذه المناسبات . وهي في الوقت نفسه لم تكن يوما من الايام ودا لبينج او ليلي . ولكنها سمحت لبومي ان يتركها ويذهب . ومع هذا قال بومي أنه لن يسهر طويلا

ووجهت الدعوة أيضا الى بيتر اكبر أبناء بينج الذي التحق بجامعة كمبردج ، اما اخوته فما زالوا أصغر من أن توجه اليهم الدعوة . وكما ادهش مارجريت نجاح تلك المأدبة الصغيرة . وكان بينج بادی الانشراح ، فاکثر من رواية الحكايات الطريفة والنسكت اللاذعة . وكانت سنه الان خمساً وخمسين سنة، وقد أضفت عليه مزيداً من الجراة ، فأصبح صوته اعلى من ذي قبل ، وضحكته المجلجلة تهز الجدران . فكان من يراه ويسمعه يعتقد أنه أبعد الناس من الانهيار العصبي . وكان ابنه بيتر لطيفاً لبقاً ، تبدو عليه معالم الشخصية القوية بعد ان امضى عاماً في الجامعة . وقد أصبح شاباً نحيلاً وسيماً ازرق العينين ، متفوقاً في ملاعب الرياضة . يتم حديثه عن اطلاق واسع . فهو يتكلم بطلاقة عن فرويد وبروست وبيكاسو . وكان واضحا انه شديد التأثير بالنظريات الجديدة . ولم تكن لمارجريت دراية كبيرة بهذه المتحدثات فكانت تصفى لمايقول ابن أختها باهتمام واعجاب

وفطنت من نظرة عينيه كلما ذكر اسم أبيه ان العلاقة بين الاب والابن ليست منزهة عن الشوائب . بل أنه صرح لمارجريت بقوله . - ابي يريدني ان انضم الى ادارة المصنع . ولكنني طبعاً لن أرضخ لهذا . فانا أمقت هذا النوع من العمل . .

وفي الساعة العاشرة أصر بومي على الانصراف ، فقرر بينج ان ينصرف أيضا . وصعد الجميع لتقديم التحية الواجبة للوالدة

العجوز في حجرة نومها . ووجعلوا صعوبة في تبادل الحديث معها لما طرا عليها من ثقل السمع . ولكنها حرصت على تهنئة بينج بالربة ، وعلقت مارجريت على ذلك بقولها :
 - ان الممرضة تقرأ لها جميع الصحف الصباحية والمساءية .
 رغم ما يكلفها ذلك من رفع الصوت ساعات طويلة
 وفي البهو قال بومي :

- اليس رائعا ان تكون صحيحة الاعضاء حاضرة الذهن ، وهي في هذه السن ... في الخامسة والثمانين ؟
 فحلق بينج في وجهه لحظة ثم هز كتفيه وقال :
 - اتسمى هذا شيئا رائعا ؟ اتمنى على الله الا اعيش حتى ابلغ هذه المروعة . اسأله متى امسيت عاجزا عن العمل المثمر مفتقرا الى القوة الكافية للانتصار ان يضع حدا لايامي !
 وفي هذه اللحظة ادركت مارجريت ان الرجل يمر بمحنة نفسية حقيقية ، وان يكن قد استأنف بعد ذلك فرحه الصاخب كالمعتاد ، ولم ينس وهو يودع مارجريت ان يدعوها لرد الزيارة بعد ثمانى سنوات من الانقطاع



كان انقطاعا ولكنها لم تكن قطيعة . لان الاتصال المباشر او غير المباشر كان مستمرا عن طريق بومي . وكان بينج يكتب اليها احيانا ليقدم اليها النصيح في مسائلها المالية التي يعرف عنها كل شيء .
 واليه يرجع الفضل في مضاعفة ثروتها بعد الحرب مباشرة عن طريق البيع والشراء في بورصة الاوراق المالية . وفعل مثل ذلك بثروة اخيها ووالدتها . فلم تدر ماذا يكون مصيرهم جميعا لولا جهوده وحصافته

وفي اواخر شهر اغسطس تلقت هي وبومي الدعوة لزيارته في ضواحي جلوسستر بالقرب من المصنع . وكان بيته فخما تبدو عليه مظاهر النعمة الحديثة . وكان خدمه جميعا من الدرجة الثانية لان المتأذين لا يطيقون معايشة رجل حاد الطبع مثل بينج . ولكنه كان يعطى ذلك بان خدم هذه الايام جميعا من البلاشفة
 وكان معظم حديثه على المائدة عن الاضرابات . وكان اضراب

عمال الفحم لم يزل قائما . وكانما شاء القدر أن يعمن في اغاططة
فجاءه الساقى يقول :

— تحت نوافذ البيت يا سيدى جمع كبير من المنشدين . انها
فرقة جواله تغنى وتجمع التبرعات لعمال الفحم المضربين
— يا لعنة ! قل لهم أن يذهبوا الى الجحيم . . . بل انتظر ! قل
لهم انى احب أن اقابل واحدا منهم . واحدا فقط . وعندما
يختارونه جئنى به !

ولما خرج الساقى لتنفيذ هذا الامر قال للمارجريت وبومى :
— سترون الآن مشهدا طريفا . لانهم يعرفون من انا وسيختارون
لمقابلتى اخطر بلشفى فيهم . وساعرف كيف اتعامل معه !
وبعد قليل دخل القاعة شاب نحيل اللون في نحو الثلاثين من
عمره وقبعته في يده ، ويرتدى احدى بدلات العمال الزرقاء .
وحقق القريب في كئوس الشراب والاطباق التى تزخر بها المائدة
وفي الشمعدان الضخم . وبادره بينج بقوله وهو يسطجع في مقعده
ويعض على طرف السيجار الضخم :

— والان ياسيدى ما المسألة ؟

— انت ارسلت في طلبى

— ذلك لاني اريد أن اتقى عليك بضعة أسئلة . اولها من انت
وماذا تفعل في جلوسستر بحق الشيطان ؟

— انا من فرقة المنشدين لصالح عمال مناجم الفحم في ويلز .
ونحن نجمع التبرعات لزوجات واطفال العمال المضربين
— انك تبدو كما لو كنت لم تأكل شبعك منذ شهر !

— هذا صحيح فعلا

— اللذب في هذا ذنبك . فلا يجوز أن تعيشوا من خير البلاد
من غير أن تؤدوا عملا

—

— هل انت جائع ؟

— نعم

— وسيزداد جوعك الى أن ينتهى الاضراب

—

— وهل جميع زملائك جياع ؟

وسر مارجریت أن ترى عینی القریب تومضان كأنهما جمرتان
وبصیح :

— نعم كلنا جياع . ولكننا نفضل الهلاك جوعا على أن نقبل
فلسا واحدا من ابن فاعلة مثلك !

وقبل أن تبدو آثار الدهشة لهذه الكلمة النابية على الحاضرين ،
ترنج الشاب وسقط فوق مقعد مقشيا عليه . فأسرعوا جميعا
لتجديته وصب بومي في فمه كأسا من البراندى . وأسرع بينج يفتح
النوافذ . وبعد قليل أفاق الشاب . فسأله بينج بخشونته المعتادة :
— كم عددكم ؟

— عشرون عازفا ومغنيا

— أدخلوا بعد نصف ساعة من الباب الخلفي وسيقدم لكم
الطاهى جميعا عشاء كاملا أيها البلاشفة الانجاس . ولا تحاول أن
تجادل !

ولم يكن في استطاعة الفتى أن يجادل، لو أنه أراد . وخرج معتمدا
على ذراع الساقى

وساد التوتر جو القاعة بعد خروجه . وأبدى بومي رغبة في
الانصراف كي لا يترك بولين وحدها . ولم يبد بينج الا الحاحا
يسيرا جدا لاستبقاء الشقيقتين

وفي السيارة أظهر الشقيقتان امتعاضهما لسلوكه الفجح السوقى :

— أيا كان لقيه فهو لا يمكن أن يكون جنتلمانا با بومي !

— كلا يامارجريت . لن يكون جنتلمانا ما عاشى

وكان هذا كل تعليقهما على الموقف



وفي ذلك الصيف كان نظام حياة مارجریت رتيبا خاليا من أى
تغير . فهي عادة تتناول فطورها في الفراش ، ثم تفاديه في منتصف
العاشرة فتغض يريدها وتكتب بضع رسائل . ثم تصعد الى حجرة
أمها فتقضى بها نحو ساعة . وتخرج من سيارتها ذات المقعدين مدة
نصف ساعة ، وتعود لتناول الغداء ، ثم تخرج مرة أخرى بعد
الظهر للنزهة في سيارتها المكشوفة وتتناول الشاي في إحدى البلاد

المجاورة ، ثم تعود لتناول العشاء . و قليلا ما كانت تدعو احدا للعشاء ، لان بومي لا يستطيع قبول الدعوة من غير بولين وبولين لا تحبها ، وقد ايقنت من ذلك منذ عامين على اثر مشادة كلامية كشفت عن خفايا الصدور

وفي المدة الاخيرة صارحها بومي بأن بولين تبدى سخطها اذا فارقتها وهي لا تستطيع الخروج بسبب الحمل . فادركت مارجريت أن بولين تستغل هذا الظرف لتملى على زوجها الا يزور شقيقته في المساء . وهو في الصباح مشغول غالبا في العمل في المصنع ، وزوجته لا تفتأ تتصل به تليفونيا لتتأكد من أنه لم يذهب لزيارة مارجريت !

وكان تعليق مارجريت على ذلك أنها ضحكت وقالت :

— كم بقي لها على اوضع يا بومي ؟

— ثلاثة اشهر

أراك !

وضحك الاثنان . لانه كان من المستحسن في هذا الموقف أن يحصل الامر على محمل الهزل لا الجد

وفي هذه الفترة كان بينج غارقا الى اذنيه في محاربة نقابات العمال . وكان يشعر بارهاق عصبي شديد سيسلمه الى الانهيار . ولم تفلح محاولة بومي لاقتناعه بعدم جدوى هذه المعارك ضد النقابات . لان هؤلاء الناس انما يطالبون كأي انسان بمستوى معقول من الحياة . وأنهم لو وجدوا شيئا من حسن المعاملة لمسا جنحوا الى التمرد والاضراب . وفي هذه الحالة لن يجد المتطرفون مجالا صالحا لتهييج الخواطر

وذات صباح اختلس بومي زيارة قصيرة لها . واخبرها ان بينج قرر الدخول في معركة الانتخابات النرجية في دائرة ملفورد وشعاره « مناهضة الاشتراكية » . مع أنه من المعروف أن هذه الدائرة دائرة همالية ، ولن تقرم امامه أقل فرصة للنجاح . ولكنه فيما يظهر ينشد الاشتباك في معركة حبا في العراك نفسه . وسيكون له في هذه الانتخابات ما يريد من صدام خشن . ستخضع الجراح من غير أن يغوز بشيء من غار النصر

الفصل الثالث عشر

الأب وابنه

وقبل أن ينتصف شهر أكتوبر علمت مارجريت أن بينج يواجه مزيداً من المتاعب . فالمصادمات الليلية التي حدثت في اجتماعاته الانتخابية بدائرة ملفورد ، والتي أتت على وصفها الصحف ، كانت تدل على أنه يواجه في تلك المعركة أعنف امتحان صادفه في حياته

وكانت هناك محنة أشد من هذا لا يعرفها عامة الناس . ومصدر هذه المحنة ابنه البكر بيتر الذي أثار سلوكه في كسبرج سخط والده الشديد . ففي ذات يوم اتصل بومي بمارجريت في الصباح تليفونيا وقال لها :

— لم استطع أن استخلص من بينج ما الذي ارتكبه الفتى بالضبط واعتقد أنه أسرف في الانفاق ، أو انحرف في هذا الاتجاه أو ذاك . وبينج على كل حال نائر ثورة لا يتصورها العقل لهذا السبب . لم يكن ينقصه إلا هذا وهو يلقى الأمرين من المعركة الانتخابية الفرعية ومتاعب المصنع ...

. اتظن أننا نستطيع أن نمد يد العون ؟

— العون ؟ لمن منهما ؟

— لكليهما . أم لا ؟ هما فهذا اعتبار ليست له أهمية كبيرة أن نستطيع أن نصلح ذات بينهما

— في وسعك أن تحاولي ذلك إن شئت . أما أنا فقد حاولت ولم تكن النتيجة مشجعة ؛ لقد اقترحت عليه أن أسرع إلى كسبرج . اتحدث إلى الفتى بطريقة ودية . ولكن بينج قال إن ما يحتاج إليه ذلك الفتى ليس الحديث الودي بل جبل المشقة ... فإذا كان هذا

هو اتجاه تفكيره فاذن ...

نعم انها تستطيع ان تخمن معظم تصرفات بينج واتجاهات تفكيره . ولكن المسألة كانت ذات صبغة هامة بالنسبة لها رغم اجتهداتها في ابعادها عن ذهنها ، باعتبارها مسألة لا تخصها . وظلت هذه المشكلة تلح في تفكيرها . بالاسرة أختها الراحلة من أسرة عجيبة ! فهذا بيتر في الثامنة عشرة في الفرقة الأولى بالجامعة . وهذا ميكي في السابعة عشرة بالفرقة الأخيرة بالدرسة الثانوية وهذه جون في السادسة عشرة رئيسة القسم الداخلي بمدرستها الراقية . وهذا بريان في الخامسة عشرة يحلح حلح ميكي خطوة . بخطوة . وهذان هما افريل في العاشرة وروبرت في السابعة في مدرسة ابتدائية داخلية في شلتنهام . وكلهم أشبه بينج منهم بليلى . فشخصياتهم جريئة وفيهم نصيب ضخم من غريزة النزال . وكانت ليلى في حياتها عاجزة تمام العجز عن سياسة أمورهم ، ولذا نفضت يديها منهم في سنواتها الأخيرة ، وأدخلتهم جملة في المدارس الداخلية . فهذه المتاعب التي يثيرها بيتر ربما لم تكن الا مناوشة أولية تسبق معركة طويلة بينه وبين الاسرة لابد في النهاية أن تنتهي بهزيمة بينج

وشعرت مارجريت مرة أخرى بشيء من الشفقة به ، فهي تعلم تمام العلم أنه يخفى وراء مظهره العاصف الخافي تعلقا حقيقيا وحنانا على اطفاله . وأنه انجب كل هذا العدد من الاطفال لانه يحب الاطفال ويريدهم

ولذا شعرت مارجريت وهي تقود سيارتها نحو ملفورد ذات صباح من شهر اكتوبر بثقة غريبة تملأ جوانحها . وكان رأيها قد استقر على مواجهته صراحة وسؤاله بلا مواربة عن موضوع بيتر . وأدهشها انها لم تشعر بعد أن استقر رأيها بادنى خوف منه

ووصلت الى ملفورد قبل الظهر وهي بلدة صناعية بالقرب من برمنجهام ، تزدهم بالمصانع وخطوط السكك الحديدية وبصقوف متشابهة من الاكواخ . وتعتبر قلعة من قلاع العمال الانتدابية . لان نائب البلدة كان دائما من ذلك الحزب ، فكان ترشيح بينج لنفسه هناك عملا من اعمال التحدى المقضى عليه بالفشل سلفا . وامام مقره الانتخابي رأت لافتات ضخمة بحروف نارية « انتخبوا بينجلى

واخذلوا الحمر ! » . . وبعد قليل وجدت نفسها تواجهه براسه الضخم وكتفيه العريضتين العاليتين وشعره القصير الاشهب ، فكانه خليط عجيب من لويد جورج وهندنبرج . كان يبدو قويا كالجبل الراسخ . بيد أن نظراته نمت عن ارهاق عصبى شديد . ولما خاطبها بدا صوته كالرعد الضعيف :

— مارجریت ؟ ما الذى جاء بك الى هنا ؟ هل كل شىء على مايرام ؟ وبومى ؟ والوالدة ؟ وبولين ؟

— كلنا بخير . ولكنى فكرت فى الحضور لمقابلتك عندما سمعت ان هناك متاعب بخصوص بيتر . فخطر لى اننى ربما . . .
فقاطعها بحدّة قائلاً :

— بيتر ؟ لا تشغلى نفسك به . اظنك كنت مفتوحة الاذنين لذلك اللفظ الفارغ الذى يدور بصده ؟

— قلت لك يا بينج انه وصل الى علمى وجود مشكلة تتعلق به .
وانه خطر لى انك ربما كنت مشغولا هنا فى الوقت الحاضر ولذا قد استطيع القيام بدور فى حل هذه المشكلة نيابة عنك .
وثبتت نظراتها فى عينيه كأنها تتحداه ان يكون فظا . فقال بركة ، تخفى تهكمه :

— ولكن كيف بالله تظنين انك مستطيعه مد يد العون ؟
— بينى وبين بيتر صداقة قوية . انه صلب الرأس كما أعلم ، ولكنى اظن ان لى بعض التأثير عليه
— أعظم من تأثيرى انا ؟

— الجواب نعم مادمت مصرا على السؤال
وتوقعت ان ينفجر بركان غضبه . وانتظرت ذلك الثوران بهدوء شديد . ولكنه ساقها بكل هدوء :
— وهل تعرفين موضوع المشكلة ؟

— كلا
— اذن أنت تتكلمين على غير أساس . فلو عرفت الحقيقة لادركت انك لا تستطعين شيئا

— اذن -جرنى هذه الحقيقة
— يا عزيزتى مارجریت ، انا لا اريد لك ولا لغيرك ان تتعبوا

انفسكم وتصدعوا رءوسكم بمسالة خصوصية تماما محصورة بيني وبين ابني . لقد كان فضلا منك ان تأتى وأنا أقدر دوافعك . ولكنك فى الواقع ضيعت وقتك . والآن تعالى نتغدى معا ان لم تكونى فى عجلة من امرك

وفى هذه اللحظة دخل احد الموظفين وقال لينج :

— موعدا الاجتماع الانتخابى امام مصنع صهر الحديد، بعد خمس دقائق ياسيدى . والسيارة معدة

— يا للشيطان ! لقد نسيت هذا تماما . ولكن لا بأس بهذا يمارجريت . تعالى معى وسننتهى من هذا الاجتماع بسرعة ونتغدى بعد ذلك

— ليكن

ونزلا الى الشارع وركبا معا سيارة فورد صغيرة مكشوفة ، اخترقت بهما شوارع وازقة ضيقة بين بيوت متداعية . وكان لينج يتحدث طول الوقت عن اوكار الشيوعية وعملاء البلاشفة والمهيجين المحترفين . ولكنها لم تكن ملقية اليه بالها معظم الوقت

وعندما وقف السائق بالسيارة امام مصنع الحديد الكبير بدأت صفارات المصنع نشيدها المزيج . كانت لحظة انصراف العمال للغداء وتدفق المئات من الرجال والنساء من جميع أنحاء المصنع . وفى مدى دقيقة واحدة كانت السيارة محاطة بجمهور صاحب لاشغب . وبينج واقف ليلقى خطبته . ولكن جمهوره من العمال لم يظهر أى استعداد للاصغاء . فظل يشغب على الخطيب بالصفير والعواء والنهيق . فشعرت مارجريت بسخافة حضورها هذا المشهد . وان سخافة بينج كانت أشد حين دعاها للحضور . ومع ذلك شعرت بمتعة لخروجها من دوائها حياتها الرتيبة الى مثل ذلك المشهد المثير

وظل بينج يجأر ويصيح . فاستطاع بغض الاصرار والمثابرة ان يتغلب على الشغب . وظهرت على ملامحه الضخمة امارات الزهو والنشوة عندما تمكن من ارغامهم على الاستماع اليه . وكان الشرر الذى يتطاير من عينيه وهو يصب عباراته النارية بعد ذلك يجعل منه صورة رائعة لجواد عتيق من جياد الحرب استنارت كوامن

النزال فيه دقائق انطبول ودوى الرصاص . وكانت عباراته نفسها تبدو هزيلة بالقياس الى صورة ملامحه وتعبير نظراته . كان أقوى مافيه ليس عقله ولا لسانه ، بل تلك الحيوية الطاغية التى شعر بها جمهور خصومه شعورا حسيا خفيا فانكمشوا متضائلين أمامه جماعة ووجدانا

والقى خطبته كلها كلمة كلمة وحرفا حرفا . ولكن من غير طائل . لان تجربته الشديدة لخصومه وتنديده العنيف بهم حرى أن يكسبهم عطف السامعين . وعجبت مارجريت كيف يطعم فى كسب معركة انتخابية بهذه الوسائل ؟ ولماذا وهذه اسلحته يصير على خوض مثل تلك المعركة ؟

وشعرت مارجريت بالارتياح الشديد عندما بدأت السيارة تتجه بهما الى وسط المدينة . وفى خير فنادقها انتحبا ركنا لتناول الغداء وظل طول الوقت يكلمها بصوته المرتفع متفاخرا بأرائه . وكان واضحا انه مسرور بصحبته . وصارحها بأن ثباتها بجواره فى ذلك الاجتماع الصاخب اثار دهشته واعجابه . ثم سالها عن رأيها فقالت ببساطة :

— ان موقفهم ليدهشنى . فلو كنت اعيش فى خرائب ملفورد مثلهم لامتنتقت آراءهم حتما

— هذا هراء يامارجريت . وان كنت اجد لك عنرا أكثر مما اجد لفتى تريبى فى أرقى المدارس ، ودرج فى مهاد الترف والنعمة . تصورى أن ابنى يتصدى لخصومتى وينضم الى ناد للعمال فى كمبردج ويمسى شيوعيا !

— وهل هذه هى كل المشكلة ؟

— يا الهى ! وماذا تريدان العن من هذا

— لقد ظننت المسألة خطيرة حقا

— انها خطيرة بلا شك حين يكون هذا الفتى ابنى انا

فسألته باسمه وبكل بساطة :

— لماذا ؟

— اتقولين لماذا ؟ اليس الامر واضحا غاية الوضوح ؟ انظرى الى .

الى مركزى . الى سمعى . الى ...

— وكيف يمكن أن يؤثر سلوك بيتر في هذا كله ؟
فحملق في وجهها بعينين تتقدان كالجمر ، وأخرج من حافظته
قصاصة من قصاصات الصحف الشعبية ، وكان عنوانها « الابن
يخطب ضد ابيه » . موقف سياسي فريد في ملفورد « وقرأت
القصاصة :

« من بين الشخصيات التي تترر قيامها بالقاء الخطب الانتخابية
لصالح المرشح الاشتراكي في معركة الانتخابات الفرعية بدائرة
ملفورد ، المستر بيتر بينجلى ابن السير اوين بينجلى المرشح المناهض
للإشتراكية في هذه الدائرة عينها . وقد أثار هذا الموقف الفريد
فضول جميع الناس في الدائرة . فمستر بيتر بينجلى شاب دون
العشرين من العمر وطالب بجامعة كمبرج »
ولما ردت اليه مارجريت القصاصة سالها :
— أترين هذا الموضوع تافها هينا ؟

— لعل فيه من الطرافة أكثر مما فيه من النفاهة !
— طرافة ؟ هانتدى ترين انى أقاتل ضد جميع الاعتبارات في هذه
المعركة . ثم أرى ابني البكر يدخل المعركة ليقاقل في صفوف أعدائي
أسمين هذا شيئا طريفا ؟
— سواء كان طريفا أو غير طريف . فهذا شيء أصبح مألوفاً في
أبامنا . فالبدعة الجديدة أن ينضم أبناء الاغنياء الى حزب العمال .
انظر الى بلدوين !

— انى أدرك الآن كم أساء اليه انضمام ابنه الى الاشتراكيين !
— بالعكس ! لقد أفاده هذا كثيرا لانه أثار اشفاق الناس عليه
وكانت هذه العبارة القشّة التي قصمت ظهر البعير . فتقلصت
ملامحه وصاح بها عبر المائدة :

— وهل تظنين انى أبتهج لشعور الناس نحوى بالشفقة ؟ انى
أستطيع ان اتحمل كل شيء في الدنيا ماعدا هذا !
ولكنها كانت مشفقة عليه أسفة له . فمئذ بضع سنوات كان من
المع الشخصيات في إنجلترا ، ولم يكن أحد يتوقع له التعثر في يوم
من الايام . وهاهو ذا الآن يشعر بتألب جميع القوى والعناصر ضده
وقالت له وهى تنهض منصرفه :

— ربما قابلت بيتر قريبا يا بينج
فأشار بيده إشارة ليس لها معنى معين وقال :
— وهل أملك أن أمنعك من رؤياه ؟



وبعد ثلاثة أيام رحلت الى كمبردج بالقطار . واستقبلها بيتر
بسرور شديد قائلا :
— ما أعظم ابتهاجى بحضورك يا خالتى مارجرى . لاني كنت
بحاجة ماسة للتحدث معك
— وأنا كذلك . وهذا هو سبب حضوري
وفي حجرته التي تطل على الفناء الكبير تكلية الثالث بادرها
بقوله :

— اظنك تعلمين اننى سأخطب في ملفورد ؟
— علمت هذا . ودهشت لاننى لم اكن اعلم انك تهوى الخطابة
— لم اكن أهواها في البداية . ولكنى جريتها في اجتماعات الاتحاد
وأظهر بعض الناس تقديرا لموقفى الخطابى
— ان الخطابة شيء جميل وموهبة عظيمة
— عندما يكون الانسان متفوقا فيها . ولكن أخشى أن اكون
متحدثا من طراز عادى جدا
— التمرين كفيف برفع المستوى وتلافى الاخطاء . واظن أهل
ملفورد وجهوا اليك الدعوة كي تلقى خطبتك هناك ؟
— نعم . فمرشح العمال له صديق في نادى العمال هنا . وكنت
قد وعدت النادى بالمساعدة في أية معركة انتخابات فرعية . وكان
هذا قبل أن اعلم أن والدى ينوى ترشيح نفسه في ملفورد . فلم
يكن في وسعى التنصل من وعدى بخصوص مسألة عامة بسبب
عائلي، خاص

— بل يبدو لى أن ما تسميه سببا عائليا خاصا حرى أن ينهض
عدرا لو أنك أردت الخروج من المازق حقا
— ربما . ولكنى لم أرد ذلك !
فصمتت وجعلت تنظر الى وجهه الجاد ، انه شديد الشبه بأبيه .
وهو مثله مقاتل مطبوع . وقالت له بعد حين :

— أعطنى سيجارة يا بيتر
والغور تلاشت الحدة من ملامحه وحلت محلها الدمثة والرقّة وهو
يقدم لها أنواعا مختلفة من اللعائف الأمريكية والمصرية ثم قال لها :
— أنا لا أقدر رأيا لاحد من أفراد الأسرة مثل تقديرى لرايك .
ولذا أحب أن تصارحينى به

— هذا ما حضرت بسببه يا بيتر سواء طلبت منى رأبى أو لم
تطلبه . وينبغى أن تعلم قبل كل شيء أننى لا ألومك على معتقداتك
السياسية أيا كانت . فهذا من شأنك وحدك . ولكنى أعتقد فى الوقت
نفسه أن تصديقك لمساعدة خصم إيبك فى الانتخابات بهذه الصورة
الواضحة ليس خطأ بمعنى الكلمة ولكنه فساد ذوق . هذا هو رأبى
وارجو ألا تضيق به

فاحمر وجهه احمرارا شديدا لان تهمة فساد الذوق لمست فيه
وترا حساسا وقال :

— الحقيقة أننى كنت أفكر فى تغيير موقفى لو لم يصلنى من والدى
خطاب عاصف عيف . ويكفينى أن أطلعك عليه

وقدم اليها أربع صفحات مكتوبة على الآلة الكاتبة على أوراق
المصنع . وكانت العبارات مما لا يصلح عن رجل متزن . وناهيك
باملائها على سكرتيره . فما أعنف ما تضمنته من الشتائم والتهديدات
لان بيتر انضم الى ناد لا يرضى بينج عن لونه السياسى . فلما فرغت
من تلاوة الخطاب سألها بيتر :

— أتلومينى الآن ؟

— لا ألومك إطلاقا

وحضر الغداء الذى أوصى به بيتر ومعه زجاجة من الشمبانيا
المثلجة . وأنصرفا لتناولهما وكان الحديث على المائدة فى موضوعات
عادية . ولكن مارجريت فاجأته فى نهاية الطعام بقولها :

— أن هذا الخطاب يابىتر يبدو غير معقول إطلاقا . غير معقول
بحيث لا يمكن أن نحاسب عليه كاتبه . لانه يدل على أن الكاتب
لم يكن مالكا زمام نفسه . وينبغى أن تعلم وتذكر أن الارهاق فى
العمل قد يؤدى بالانسان الى الانهيار العصبى
— وهل تظنين أن رجلا مهددا بانهيار عصبى يخوض معركة

انتخابات فرعية معادية بهذه الصورة ؟

— لا يقدم على هذا أيضا رجل يملك زمام نفسه
— ان والدى رجل عنيد يحب التحدى . كنا ونحن اطفال نراه
يلغى ارادة امى ، ويفرض رايه عليها بلا هوادة . وكانت هى تتحمل
منه هذا . اما نحن اولاده فلن نتحملة

— انه يحبك كثيرا يابيتير . بل يحبكم كلكم
— ولكن طريقة المعاملة اهم لدينا من الحب
— انه يعامل جميع الناس بهذا الشكل . هذا طبعه ولا حيلة
له فيه

— ونحن لا حيلة لنا فى العجز عن احتماله . انه يعاملنا معاملة
احط من معاملة الخدم . ولا تحاولى الدفاع عنه فهو من القوة بحيث
يتحمل نتيجة أخطائه

— انا لا ادافع عنه وانما اريد ان اذكرك بأشياء معينة . اولها انه
تعرض فى المدة الاخيرة لقلق نفسى شديد ،

— ان كنت تعنين متاعبه فى العمل والسياسة فأنا اعتقد انه جلب
تلك المتاعب على نفسه . فهو ميل للتحدى من غير روية ، شديد
التجنى على خصومه فى الراى . فلا يلومن الا نفسه لتألب الناس
عليه

— انى اعرف هذا ولكن المتاعب هى المتاعب على كل حال . ومن
متاعبه ما لم يكن له فيه يد . مثل وفاة والدتك
فاربد وجهه وقال بجفاء :

— هذا موضوع لم اكن احب الخوض فيه حتى لا اقول قسولا
جارحا . فالحقيقة التى نعرفها جميعا فى بيتنا انه لو لم تنجب امى
هذه الشرذمة كلها من الاطفال لما عوجلت وهى بعد فى هذه السن
الصغيرة !

— وهذا هو رايى ايضا يابيتير !

وادمشه هدوؤها فصاح :

— ألا ترين ان هذا شئ فظيع ؟

— فظيع جدا

- الا يدفئك هذا لكراهية أبى ؟
– كلا . فانا احب الاطفال جدا فلا املك أن اكراه احدا لمحبته
اياهم وورغبته فيهم
– أما انا فأرى هذا شيئا مغشيا للنفس
– لقد كانت وفاتها صدمة له على كل حال
– هذا بفرض أنه كان يهتم بامرأها حقاً . ولو أنه كان متعلقا بها
لما ترك حياتها تدوى وهو متعمد ، في سبيل ارضاء نزعتة للابوة
الكثيرة العدد
– انك مجادل بارع يا بيتر ولكنك لن تصل الى اقناعى . والذى
لاشك فيه أن والدك يواجه منذ انتهاء الحرب مشكلات كثيرة ...
– اعلم هذا . واعتقد أنه يتحسر على سنوات الحرب باعتبارها
العصر الذهبى لامثاله من الرأسماليين الذين استفادوا منها ولم
يشتركوا في القتال
– انك شديد القسوة يا بيتر على أبيك وتصوره في صورة وحش
لا قلب له
– ليس بالضبط أنه ليس بلا قلب ، بل آفته أنه بلا خيال . فلم
يستطع أن يتصور ويلات الحرب وظننها نوعا من التنافس الرياضى
أو المعارك الانتخابية . وأنا حين أراجع تاريخ الاسرة في الحرب أشعر
بالخجل . فلم يشترك احد أفرادها في المعارك ولكننا جميعا اثرينا
من صنع محركات الطائرات والسيارات للأغراض الحربية . ولم
شعر احد من أفراد اسرتنا جميعا بلحظة قلق شخصى أو أسف
أو ألم
– بل كان منا من عانى هذا يا بيتر
– من أذن ؟
– انا
– أنت ؟
فقال له بكل هدوء :
- لقد كان لى صديق من اعز من عرفت من الناس واحبهم الى
قلبى . وقد لقي هذا الصديق حتفه في الميدان قبل الهدنة بخمسة

أيام ، وكان فتى أمريكيا لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره وقد التقيت أنت به ذات مرة

فأخفت أمارات العداء من وجهه وقال برنة ندم :

— انى آسف جدا ... لم تكن لدى أدنى فكرة ... أرجو أن تصفحى عني . فأننا لم أقصد إيذاء شعورك ... والحقيقة أنني حين اتحمس لفكرتى تخرج من فمى أبشع الأقوال
— نعم . مثل أيبك تماما ...

وظفرت الدموع الى عينيها ومدت يدها عبر المائدة وربت على يده :

— لا بأس يا بتر . لست غاضبة . بل واعتقد أن فيما قلته الكثير من الصواب . فنحن فعلا أثرينا بسبب الحرب . ولم نتالم كثيرا اذا قيس ذلك بما عاناه سوانا . ولكن لم تكن لنا فى ذلك حيلة . لان الثراء والالام كانت مصائرهما كلها فى ايد غير ايدينا ... والان هل نخرج لنتمشى قليلا ؟

وتقبل اقتراحها بسرور ، وخرجا معا الى الحدائق المحيطة بالجامعة . وكان البرد شديدا . وكان عارى الرأس لا يرتدى معطفا . ولكنه كان يشع قوة وحيوية . فلم يفتها أن تدرك شبهه فى هذا أيضا بأبيه . انه مثل أبيه فى كل شيء : فى تغير المزاج من النقيض الى النقيض ، وفى الاندفاع العنيف كالاعصار ، ثم الندم والصفاء والرفقة بعد انتهاء العاصفة النارية . ولذا رأت فى العداء بين الاب والابن وفى الكراهية بينهما مدعاة للسخرية ومفارقة قوية

وفى بعض الطريق قال لها :

— اظننى اذكر ذلك الأمريكى الذى تتحدثين عنه . لقد احببته . واذكر انى التقيت عليه أسئلة كثيرة عن الجيش الأمريكى

وتناولا الشاى فى مقهى . ولم يتحدثا عن مسألة العلاقات بينه وبين أبيه كثيرا او قليلا . ولكن على رصيف المحطة . وقد أوشك القطار ان يتحرك بها قال لها فجأة :

— سالى رحلتى الى ملفورد . لن التى تلك الخطبة

– ائى سعيدة بهذا يابيتى وشكرا لك على ضيافتك

– أرجو أن تكررى الزيارة !

– سأفعل . وداعا !

وعندما وصلت الى دارها ، كتبت رسالة قصيرة الى بينج تخبره
برحلتها الى كمبودج ، وأن بيتى سوف لا يشترك فى الحملة
الانتخابية



الفصل الرابع عشر

بعد المعركة

اسفرت المعركة الانتخابية الفرعية في ملفورد عن خذلان بينج بخمسة آلاف صوت ضد أربعة عشر الفا فاز بها خصمه العمالي الاشتراكي . وفي اليوم التالي اذيع رسميا أن مؤسسة لوفسل فريشام سوف لا تدفع ارباحا للمساهمين تلك السنة . ولم تدهش مارجريت لاي من النبأين ولكن بومي ارسل اليها بعد يومين مذكرة قصيرة عن أعمال الشركة قال فيها :

« ان العذر الرسمي لسوء الميزانية هو اضراب عمال الفحم . ولكنه عذر ظاهري . فلو لم يكن هذا الاضراب لما كانت حالة المؤسسة افضل مما هي عليه . واعتقد أن بينج لم يعد يحسن تصريف الامور . »

ولم يزعجها هذا التعليق لان مواردها الخاصة لمن أسهم الشركات الاخرى تكفيها وزيادة . وكذلك موارد نهبها . فلن تحتاج الى ضغط المصروفات في هاى ستاو . واما عن بومي فحالته ميسورة جدا ، ولا تشعر بأى قلق من نحوه . فاذا ضير احد حقيقة بهذه الازمة المالية فهو بينج نفسه . وأحسنت في أعماقها باشفاق عليه . وهو اشفاق لم تستطع التخلص منه . مع أنها تعلم أنه لا مبرر له الا التحيز لذلك الرجل رغم عيوبه جميعا !!

وهذا التحيز هو الذى دفعها غداة المعركة الانتخابية أن تتركب سيارتها الى جلوسستر وتزوره في داره . وكان البرد قارسا بعد ظهر ذلك اليوم - وهو يوم سبت - ولم تكن تتوقع في الغالب أن تبده في البيت بل وتمنت في سريرتها ألا تجده . ولكنه كان هناك بمفرده في قاعة الجلوس الواسعة يطالع احدى المجلات . وعلى الفور

فطنت الى مدى قسوة الوحدة التى يعيش فيها هذا الرجل . وهى تعلم أن عدد أصدقائه الحقيقيين قليل رغم كثرة معارفه . فمعظم الناس قد قطعوا صلاتهم به منذ زمن بعيد ، لأنه ليس من أبناء النخبة وليس جنتامانا بالمعنى الرفيع للكلمة . والقلة الباقية أنصرفوا عنه منذ بدأ نجمه فى الأفول

وأذهله أن يراها تدخل عليه . ولكن استقباله لها كان حارا . وقال متهمكا وهو يضافحها بمودة :

— اظنك جئت لتهنئتي ؟

— لكم تمنيت ذلك . والواقع انى جئت لانك لم ترد على خطابى الذى أبلغتك فيه نتيجة رحلتى الى كمبردج

— اعتذر اليك عن هذا النقصير . فقد كنت مشغولا بدراسة لا يتصورها العقل . واعتقد أنك تدركين هذا

— لا بأس . والحديث الشخصى أفضل لى كـا . حال

— طبعاً . ولابد أن نتناول الشاى معا

وتأملته وهى تجلس قبالة فلم تستطع أن تثبت من مسحته وتقلته هل هو منشرح المزاج أو منقبضه . وكانت ابتسامته شبيهة بالابتسامة الأبوية . وأشعل سيجارا ثم قال لها :

— اذن كانت رحلتك الى كمبردج موفقة . ولابد أن يتر أعبك

— كان معقولا جدا فلم أحتج الى مجهود كبير فى إقناعه

— اى معقولة هذه ؟ أثريته معقولا جدا لأنه تراجع عن مهاجمتى علنا ؟ لقد انتصرت وأقنعت . ولكن لى لك لم تنصرى !

— لماذا ؟

— ألا ترى أن فى ذلك الذلالى ؟ فهو دليل واضح على أنه يكن

من التقدير لخالته أكثر بكثير من تقديره لايه !

— اطلاقا يا بينج . كل ما فعلته اننى ناقشته بهدوء . ولو أنك

فعلت ذلك لخرجت بالنتيجة عينها

— تعنين بهذا اننى ما كنت لأفعل ذلك ؟ انى مدرك تماما

يامارجرى أنك لست من المعجبين بى . وأعلم أنك ظللت عشرين

عاما تتجنبينى جهد استطاعتك . والآن وقد تقدمت فى السن ،

وضاق صدرى جئت تكشفين لى عن سوء رأيك فى

- لماذا تقول هذا ؟ على اى اساس ؟
- اليست هذه هى الحقيقة ؟
- كلا
- اتريد ان تقولى ان راىك فى حسن ؟
- لا اريد ان اناقش الآن راىى فيك
- ولم لا ؟ خبرينى بحقيقة راىك فى . لقد كنت دائما مستقيمة التعبير . ولا تحاولى ان تراعى شعورى . لقد صمدت دائما للعواصف والصعاب . فصارحينى الآن براىك السافر فى شخصى واحمر وجهها ازاء هذا التحدى . واجابته بحزم :
- سأخبرك اذن مادمت مصرا . انى أعتقد أنك رجل كان فى وسعه ان يغدو عظيما جدا ولكنه لم يصبح عظيما . والسبب فى هذا ليست الظروف الخارجية بل شىء فى دخيلة نفسك . فوسائلك عنيفة وتفكيرك فى الامور من وجهة نظرك تفكيرا متحيزا . وقد اشتدت هذه الظاهرة فى الفترة الاخيرة فتوالى فشلك
- عظيم ! اليس هناك شىء احسنه ؟ الا احسن ادارة مصنع للسيارات مثلا ؟
- تعلم كما اعلم أنك حتى فى هذا لم تعد ناجحا كدى قبل . واما حياتك فى الاسرة فلست بحاجة الى الحديث عنها . فحتى ابناءؤك بدءوا يتالبون عليك
- اظن ان توقف الشركة عن دفع ارباح للمساهمين هو الباعث الاساسى لك على هذه الصراحة المفرطة فى نقدى . فيوم كانت الشركة تؤدى ٨٠٪ ربحا سنويا كنت فى نظرك رجلا لا عيب فيه !
- فنهضت مارجريت واقفة وقالت :
- اظن من المستحسن ان اتركك الان . فانتم لا تمى ما تقوله واخذت تجتاز القاعة الواسعة بخطى بطيئة نحو الباب . حتى اذا وضعت يدها على مقبضه لتفتحه سمعت صوتا اجسا يصيح من خلفها :
- مارجريت ... مارجريت اذهبة أنت حقا ؟
- والتفتت وراها لتراه معتمدا براسه على كفيه . وكأنه كبير عشر سنوات . كان اشبه بمحارب قديم خرج محطما من معركة طويلة .

— آسف يامارجريت . فلا أدري ماذا عراني في المدة الاخيرة .
لا تذهبي
واحسنت انها غفرت له كل شيء فابتسمت وجلست . فقال بصوت
اجش :
— فيما قلته لي كثير من الصدق
— حقا ؟ وفيما قلته انت ايضا كثير من الصدق . اننا لم نقدم لك
الشكر على شيء مما فعلته لنا . وهو شيء كثير . انت التي رعبت
مصالحنا واقمت دعائم الشركة . وصنعت لنا لروتنا . ولا اذكر اننا
ابدينا لك مقدار قلامة ظفر من الامتنان
— كلانا اذن آسف . مع اختلاف دواعي الاسف
— هو كذلك ان شئت
فتنهض على قدميه فجأة وضغط زر الجرس وأمر الساقى باعداد
الشاي ثم التفت اليها قائلا :
— ليتنا كنا صديقين طيلة هذه السنين !
— ليحت . . . واظن ان اللئب في هذا ذنبى يا بينج
— وذنبى انا ايضا فقد كنت اظنك تعقتينى
— انا ؟ ربما . ولكنى لم اعد اذكر شيئا من ذلك
— حقا ؟ حتى ولا هذه المشاحنة حول خطبة بومى ؟
— آه . ولكنى اعنى ما قبل ذلك . يوم انضممت الى الشركة
— اهلا هو الذى لم تعودى تذكريه ؟ انى اذكر هذه الفترة تماما
اذكر اول مرة التقينا فيها وكان بومى يطوف بكما انت ولىلى المصنع
وقدمنى اليكما واعتقد انك شعرت بالنفور منى من اول نظرة
— لا اظن اننى شعرت بنفور يومئذ
— ليتنى عرفت ذلك في حينه . . .
— لماذا ؟
— لا ادري . ولكن الامور ربما اتجهت بعدها غير الوجهة . . .
ولم يرد . وسكنت هى فلم تساله ايضا
وعلى مائدة الشاي تحدثا حول ذكريات قديمة كثيرة . وجرى
ذكر لوفل وكيف كانت وفاته . وبينج في زيارته . . . وكانت مارجريت
في باريس في ذلك الوقت

وقبل انصرافها اقترحت عليه أن يذهب لزيارة بيتر في كمبردج.
فقال على الفور :

— سأذهب إذا انت أتيت معي

فلم تتردد في الموافقة لحظة ، وأحست بسعادة غريبة تغمرها وهي تقود سيارتها عائدة الى هاى ستاو . كانت سعادة مغمورة بالشعور بالقوة والشجاعة والقدرة على اصلاح ما بين الاب وابنه . وبعد ذلك سيكون من اليسير تغيير حالة بينج النفسية . وقررت أن تكتب في تلك الليلة خطابا الى بيتر ، ولكنها عندما وصلت الى الدار رأت سيارة يومئذ هناك . ثم شمت رائحة سجائره المصرية في البهو . ولما دخلت حجرة الجلوس وجدت يومئذ نفسه مستغرقا في النعاس فوق مقعد وثير أمام نيران المدفأة ، ودهشت ورشبت على كتفه فاستيقظ مأخوذا وصاح وهو ينظر الى الساعة وينهض واقفا :

— يا الهى ! لابد اننى نمت زهاء ساعة ! كيف حالك ؟ هل وصلت الآن فقط ؟ قيل لى انك ذهبت لزيارة الجبار الاعظم بينج !

وأومات برأسها ثم سألته من صحة بولين فقال :

— بولين على ما يرام . وكذلك أنت فيما أرى . فلا اعتقد اننى وايتك فى صحة احسن مما انت الآن

— هذا تأثير الرياح الباردة

— نعم البرد شديد . . . ما رايتك فى التوجه الى الحجرة الاخرى

و . . .

وكف عن الكلام فقالت ضاحكة :

— و نتناول قليلا من الشراب ؟ لا مانع عندي . واعتقد انك استغرقت فى النوم حتى نسيت أنك لم تعد تعيش هنا

ويكل هدوء ومن غير انفعال قال لها :

— ليتنى لم ازل اميش هنا . لقد وقع بينى وبين بولين شجار فظيع

ولم يدهشها قوله . لانها ظلت طوال السنوات العشر الماضية فى حيرة من امره ، ولا تستطيع أن تتصور كيفية حياتهما معا . وكانت هناك دلائل تبرز بين الحين والحين . وهاهو ذا دليل من كلامه على أن بولين لم تفهمه اطلاقا . كانت واثقة من هذا . فبولين

لا تستطيع أن تفهم مثلا كيف يمكن أن يتشاجر رجل مع زوجته
أعنف شجار ، ثم ينام نوما عميقا وهو في انتظار من يقضى اليه
بموضوع النزاع . وسائله :

— اتعرف هي انك جئت الى هنا يا بومي ؟

— اظنها تستطيع التخمين

— ألا تعتقد ان هذا قد يزيد الامور سوءا ؟

— يزيدها سوءا ؟

وكان واضحا من لهجته ان الامور بينهما لا يمكن أن تكون اسوا مما
هي الآن . وأخذ يشرح لها كيف ان النزاع له اسباب ترجع الى
سنوات كثيرة . فبولين تكره الريف . وهو شخصيا يشعر بالشقاء
والاعياء كلما ذهب الى لندن . وحاولت مرارا أن تحمله على اتخاذ
بيت في لندن . فكان يماطلها ويعددها بذلك في المستقبل من غير
تحديد . واليوم بدأت موالها المعتاد حول هذا الموضوع . ولكن
بدلا من التسويات التي عودها عليها انفجر سخطه . وتابع حديثه
فقال :

— والحقيقة يا مارجريت اني لم املك نفسي . فالاحوال في
الشركة سيئة . فكيف يمكن في هذا الوقت بالذات ان تطالبني
بامتسجار بيت أعجبها في شارع بوند بايجار لا يعلم قيمته الا الله ؟
انها تريد ان تنتهي بي الى ملجأ العجزة والشيخوخة المدمين !

— ان الامور ليست بهذا السوء

— بل يجب في هذا الوقت ان نقلل النفقات لا ان نزيدها

وابتسمت مارجريت فهي تعلم أن نوبة التشاؤم تعتبره كل
خمس سنوات . وفي هذه النوبة تكون اعصابه في منتهى التوتر .
ولكنها لا تلبث طويلا حتى تزول . ولذا قالت له :

— انت تعلم جيدا يا بومي أن حالتك المالية على وجه العموم
ميسورة للغاية . وان ارباحك في السنوات الاخرى تكفي لتغطية
خسارتك في الشركة وزيادة . فلا يجوز لك ان تتشاءم

— يجوز أو لا يجوز ! أنا لن أخضع لارهابها المستمر . واذا كانت
لا تريد الحياة هنا فلها ان تذهب وتقيم في بنسيون !

— هل قلت لها هذا ؟

— نعم

— وبعثتُ بدا الشجار ؟

— نعم

— أوه يا بومي . هذا كلام ما كان ينبغي أن يقال بأى شكل !

— اتظنين هذا حقاً يا مارجريت ؟

— طبعاً . اسمع نصيحتي وعد إليها الآن واصلح ما بينك وبينها .
لأنك كنت في غاية الحماسة

ولم يجب . ولكنه نقل الحديث إلى الحديقة والازهار . وبعد
برهة قال وهو يهم بالانصراف إلى سيارته :

— يسعدنى الحضور إلى هنا ويرىنى التحدث اليك بين حين
 وآخر . سواء رضيت بولن أو لم ترض . لا أستطيع الانقطاع عنك
 نهائياً . وسأراك قريباً بلا شك . . . وإلى اللقاء . . .

وبعد أن تناولت القهوة صعدت إلى الطابق الاول ، وسألت
المرضة عن حالة أمها . ثم جلست بجوار فراشها . وكانت الأم
 نائمة . فالتفت مارجريت نظرة على الستائر . ولاحظت أن أوراق
 الخائط تحتاج إلى تجديد . ولكن ما الحيلة وأمها ترفض ذلك
 بامصرار ، لأنها لا تريد أن تغادر هذه الحجرة ولو ليلة واحدة ؟
 وفجأة فتحت الأم عينيها وقالت لها :

— هل عدت يا مارجريت ؟ لقد سمعت سيارتك وانت ذاهبة

— نعم يا أمى . ذهبت إلى جلوسستر لزيارة بينج

— بينج ؟ وكيف حاله ؟

— على ما يرام . . .

وسكنت الأم . لأن هذه الاسئلة كانت كافية لديها لتشعر أن من
 حولها على قيد الحياة . وأنها لم تزل على قيد الحياة بينهم .
 ونهضت مارجريت وصاحت :

— طابت ليلتك يا أمى

ثم همست للممرضة بكلمة تشجيع . واتجهت نحو حجرتها
واذا الساقى يسرع نحوها ليقول لها ان ساقى سير اوين بينجلو
تحدث الان بالتليفون ليبلغها أن السير اوين اصيب بانتهيار مفاجى
وامرت باعداد السيارة . وعندما مرت فى طريقها باب حجره
البياردو تذكرت رسالة شبيهة بهذه منذ ثلاثين عاما . وكان المريض
يومئذ اباهما



الفصل الخامس عشر

إصبع القدر

عادت مارجریت الى هاى ستاو بعد منتصف الليل مباشرة وقد اكد لها الطبيب انها لا تستطيع المساعدة فى شىء حاليا . فهناك ممرضة تسهر عليه . وستنضم اليها ممرضة اخرى . وعلمت منه ان الحالة تدل على انهيار تام بدنيا وعقليا نتيجة الارهاق الشديد . وهى حالة خطيرة لان بنية المريض الحديدية اتاحت له الصمود اطول مما يجب

وفى الدقائق القليلة التى قضتها فى حجرة المريض سمعته وهو فى حالة هديان يطلق صيحات وحشية حول ملفورد والبلاشفة وما الى ذلك . ولولا ان الموقف بالغ الخطورة لكان مضحكا للغاية . لان تلك الصيحات كانت شبيهة كل الشبه بأحاديث بينج وخطبه العادية

وقضت اليوم التالى فى بيت بينج ولكن حالته لم تتحسن . ووصل اولاده جميعا من مدارسهم ، وجاء بيتر من كمبردج . فاثار منظرهم اشفاقها . ولذا صحبت حين عودتها الى هاى ستاو بريان وأفريل وروبرت . وكانت هذه هى المعونة الوحيدة التى استطاعت تقديمها

وتغير نظام حياتها فى الاسبوع التالى كله . ففى كل صباح تأخذ الاطفال معها الى جلوسستر . وتقضى النهار كله هناك . وفى كل يوم تتلقى من الطبيب تقريرا لا يتغير عن حالة المريض وكيف انها لم تتغير . وفى اليوم الثامن اخبرها الطبيب ان هناك تحسنا طفيفا . وان الهذيان انقطع . وانه يذكر اسمها فى هدوء . وادخلوها اليه فتعرف عليها ، وتعلقت عيناه بها فى تلهف ، وهمس باسمها . ولم

نجد ماتقوله سوى مناداته باسمه . وبعد لحظة صمت سأل عن أولاده
ثم طلب ان يراهم . فلما دخلوا نظر اليهم واحدا بعد الآخر ، ونمت
نظراته عن اعمق الحب واصدقه . ثم خاطبهم قائلا :
— لم يعد هناك داع لبقائكم هنا . عودوا الى مدارسكم وسأسترد
عافيتي قريبا

— ولم يقل أكثر من هذا وبعد خروجهم قال لمارجريت :
— أولاد طيبون ... كلهم . من الذى يعنى بأمورهم وهم هنا ؟
— الثلاثة الكبار يبترو وجون وميكى يعنون بأنفسهم . أما الباقون
فيقيمون معى فى هاى ستاو
— هذا فضل كبير منك يا مارجريت
ورمقا بنظرة غريبة فاحصة تحمل شيئا أكثر من الامتنان وأكثر
من الإعجاب

وبعد أسبوع آخر تلاشى الخطر وكان بيتر قد عاد الى كمبردج
وعاد اخوته جميعا الى مدارسهم . وظلت مارجريت تأتى كل صباح
فى سيارتها مهما كانت حالة الجو والمطر . وتبقى مع بينج ساعة
تحدثه ان شاء حديثا ، او تقرا له فى كتاب او صحيفة . او تجلس
معه فى صمت مانوس . وكان يتقدم نحو الشفاء ببطء شديد
ويعمرور الايام اخذ يحدثها بغير احتجاز أو تكلف عن حبه لأولاده ،
وثقته فى حسن نياتهم . وذات مرة قال لها فجأة بعد صمت طويل :
— كم اتمنى لو كنت بجانبهم دائما لرعايتهم

وساد الصمت بعدها طويلا . ولم تعلق على كلماته . ولكنها
شعرت بان فى اعماقها كنوزا من الحنان لم تبدلها لرجل لانها لم
تتزوج . وان لديها من انواهب ما كانت حرية ان تحزن به رجلا
اعظم وارق ... لو انها تزوجت رجلا من طراز بينج



وبعد اسبوع ثالث بدأت تخرج به للنزهة فى الايام المشمسة فى
انحاء الريف المحيطة بالمدينة . وذات مرة قال لها فجأة :
— هناك شيء يا مارجريت يلح على خاطرى واريد أن أفضى به
اليك . بل يجب أن أفضى به اليك . فهل لديك مانع ؟
— كلا ان كان لابد لك من ذلك

ومضت دقيقة قبل ان يقول لها :

— المسألة تتعلق بأول مرة رايتك فيها .. لقد رايتك تتحاشين الاجتماع بى وترتبين الامور بحيث اكون دائما مع ليلى ... وبطبيعة الحال ... ايقنت أنك تنفرين منى ولم تقل شيئا . ولكن قلبها اخذ يدق دقا عنيقا اختلجت له مروق دماغها :

— ... ولو لم اكن موقنا من هذا لكنت انت التى طلبت يدها وبلا تردد اجابته وكان واجبها الاول ان تصدقه القول بصراحة :
— ولو انك طلبت يدى لقبلى !
— يا الهى ! اكنت تقبليننى حقا ؟
— نعم . وانت قلت أنك تريد ان تخبرنى لتخلى ذهنك من هذه الرغبة الملحة . والان فلنترك هذا الموضوع ولا نعود اليه
— ولكن ...

— ليس الان على الاقل

وعادت به الى يتيه ثم اسرعت عائدة الى بيتها . وكان القمر يتوسط السماء وهى تخترق التلال بسيارتها . وراودتها نفسها ان تنزل وتتسلق تل ستاو فى قفزات متلاحقة تمبر بها عن فرحها الظافر

اذن كان بينج يريد ما هى . وقد ظننه يفضل ليلى فكتمت هواها وتعمدت ان تتحاشاه ... ولكن هذا كله تاريخ قديم . ولا فائدة من مناقشته

وفى الصباح ذهبت الى جلوسستر بنراه كالعادة فبادرتها الممرضة بانه نام نوما سيئا . ولكن عندما انفردت به ملوجريت قال لها باسم :

— الممرضة تظننى اسوأ حالا اليوم . وهذا غير صحيح . فكل ما هناك ان خاطرا يلح على ذهنى ولن استريح حتى اطلعك عليه
— تكلم اذن لتستريح . ولكن لا تجهد نفسك

— تذكرين حديث الامس . لقد بدا لى غريبا اننا قضينا هذه السنين كلها ، وكل منا مخدوع فى فهم شعور صاحبه . وشغلنى التفكير فى ذلك . وتساءلت هل فات اوان اصلاح ذلك الخطا القديم ؟

— كلا بالطبع . لقد انتهى هذا الماضي وسنكون صديقين حميمين
جدا في المستقبل

— اخشى انك لم تدركى مرمى كلامى
— حقا ؟

— كلا . انى يامارجريت أسألك بصراحة هل لديك مانع الان من
الزواج بى ؟

فشجب لونها لانها طرحت من ذهنها منذ ستوات كل احتمال
للزواج . كانت احيانا تتمنى لو انها تزوجت . لا ان تزوج الان .
وفطن الى شحوبها فقال :

— اذا كنت ترين هذا مستحيلا كل الاستحالة ، فعليك ان
تصارحينى الان بذلك وسأحاول ان اطرد المسألة من ذهنى . وأعدك
الا اعود الى اثارها

— اتعنى هذا حقا يا بينج ؟

— بكل صدق واخلاص . هل ادهشك الطلب ؟
— لقد بدا مستحيلا . بالنسبة لسننا

— اننا لم نتجاوز سن الاهتمام بالحياة . صارحينى برايك !
— لم يتسع لى الوقت للتفكير . ويجب ان افكر مليا
— هل ستفكرين جديا حقا ؟

— نعم

— ومتى تبلغيننى رايك ؟

— متى وصلت الى قرار . وربما كان ذلك غدا

وتلك الليلة أخذت تسال نفسها . انه فى الخامسة والخمسين
وهى فى الخمسين . وامامهما نحو عشرين سنة يتم فيها نمو الاولاد
ويتزوجون ، ويجتاز فيها المصنع الازمة وتزدهر احواله . ويعود
فيها بينج الى التوفيق ، ان لم يحقق فيها شيئا من آماله الضخام
انها لا تنوى ان تتحكم او توجه . ولكنها ستستخدم تأثيرها
المهدىء عليه وعلى اولاده . وربما اقنعتة باعتزال السياسة نهائيا .
ولكن ماذا سيقول بومى ؟ ماذا سنقول امها ؟ ماذا سيقول بيت
وجون ؟ انهم سيقولون جميعا انه زواج مصلحة او زواج عقل .
ولكنها تعلم ان فيه أكثر من العقل والمصلحة

وتمنت أن يظل الامر سرا بينهما بعض الوقت . فان لفظ الناس وتهانيهم قد تثير اعصاب بينج وهو في طور النقاة . وفي الصباح زارته فأنبأتها الممرضة أن نومه كان قلعا . فلم تعجب وايقنت أن قلعه سيزول

وبمجرد انفرادهما معا قالت له بكل بساطة وعلى الفور :

— انى احمل اليك جوابى يا بينج . سأتزوجك

وألج صدرها أن ترى ابتسامته الصامتة البطيئة تتسع حتى تغمر وجهه الكبير كله ولعلت عيناه . واشرفت أساريره . فسأله :

— اراض انت الآن ؟

فقال متلعثما

— نعم . كل الرضا

— وكذلك انا



ومرت الايام وهى تشعر باحساس غريب مصدوره ذلك السر الذى بينها وبين بينج . وأنها بعد كل هذه السنوات ستزوج أخيرا ومع تقدم صحة بينج صارت حالتها النفسية أشبه بحالة فتاة من طالبات المدارس في عطلة

وكانت هناك اشياء كثيرة جدا يجب الاتفاق عليها واعدادها ومناقشتها . وفي الرحلات الكثيرة التى صحبته فيها بين أرجاء الريف كانت هذه الموضوعات تشغل وقتها . وذات مرة اقترحت عليه أن يكون شهر العسل رحلة طويلة بطيئة حول العالم . وبطبيعة الحال كانت هناك صعاب لايد من تذليلها . فمن الذى سيعنى بأمها اثناء غيابها ؟ ومع هذا كانت مناقشة الرحلة كأنها شيء سيحدث فعلا أمرا سارا بهيجا . واشترى الخرائط وكتب الرحلات ، ورتب كل دقائق الرحلة وتفصيلها . مع أن الموضوع كله لا يمكن البت في تنفيذه الا بعد استشارة السيدة المعجوز

وفي عطلة منتصف العام عاد بيتر الى البيت وجمعتها جلسات ودية كثيرة ناقشا فيها آراءه السياسية . ولم يستطع اقناعها على طول الخط . ولكنها لم تكن متحيزة ضد آرائه على كل حال . فكان دائما يتنسم ويقول لها :

- اعتقد انك اقرب الى الاتفاق معى
- انا فى الحقيقة اقرب الى الاتفاق مع كل انسان
والواقع ان هذه الآراء الجديدة اثرت فى تفكيرها فبدأت تنظر
الى الناس على اساس جديد . هو اساس تكافؤ الفرص وحق
جميع الناس فيه
اما بقية الاولاد فكان سلوكهم نحو بينج مرضيا للغاية . لقد
أصبحت الحواجز بينه وبينهم أقل . واجتروا ليلة عيد الميلاد
على الصخب . ودخل معهم بينج فى مباراة تلبلياردو . وبعد
انصرافهم الى مخادعهم صنت لنفسها وله كأسين كبيرتين . وكانت
يدها ترتجف فقال لها :
- اراك مستثارة الاحاسيس !
- بل انى سعيدة للغاية . سعادة هؤلاء الاطفال تسعدنى
- اعتقد انك ستزوجينى محبة فيهم
- وانت لماذا تزوجينى اذن ؟
- لماذا ؟ لاننا سنكون احمقين لو مضى كل منا يعيش بمفرده
بقية عمره
- هذا سبب وجيه ومعقول وفيه الكفاية
نعم انهما أسن من احاديث الفرام . فالفرام خارج برنامجهما .
ولكنها ليست صحبة خالية من الود والتكافل
وفى بداية العام أثبتت امها . فتقبلت النبا ببساطة . انها لم تعد
تكثر كثيرا لما يصنعه الناس . وفى ذلك اليوم رن جرس التليفون
وكان المتحدث بومى .
- تعالى بسرعة . حالة بولين سيئة وقد بعثنا فى طلب الطبيب
ولما وصلت الى بيت بومى وجدته هو فى حالة سيئة . كانت
اعصابه على شفا الانهيار
وبعد قليل ولد الطفل . كان غلاما . ولكن بولين ماتت !
ووجدت نفسها امام موقف جديد . امام أخ عاش طول حياته
معتمدا عليها . وهو الآن مترمل له طفل يتيم . وليس لهما فى
الحياة من احد سواها
كان بومى اشبه بطفل مسلوب الارادة لابد ان تلازمه وترعى

حركاته وسكاته وتطعمه وتهدهه وتكفكف عبراته . وصحبته معها
ليقيم في هاى ستاو هو وطفله . وفي هاى ستاو ثاب الى عاداته
القديمة واطمئنانه القديم . وجعل يقول لها :

— لا ادرى ماذا يكون مصيرى لولاك يا مارجريت

وعندما جاء بينج للعزاء كانت نظيرة واحدة الى عينيها كافية كى
يفهم كل شىء . كى يفهم أن واجبا آخر قد استأثر بها دونه في آخر
لحظة . وأغضى وهو يشد على يدها بحرارة . فقالت همسا .
بصوتها الهادىء المطمئن :

— سنكون دائما صديقين حميمين . ينبغى أن يكون هذا كافيا

وهز رأسه ولم يتكلم . فقالت :

— يجب يا بينج . لا بد ..

فابتسم ابتسامته البطيئة وقال :

— نعم . لا بد ..

— ولا بد أيضا أن تستعيد صحتك لتشرف على العمل . فحالة

بومى لاتسمح له في الوقت الحاضر بنشاط يذكر

فازدادت ابتسامته اتساعا وهو يقول لها :

— كلانا يجب أن ينهض ويواصل الكفاح . فمن سوانا يستطيع ؟



المقصود من العالمية للجميع

اسكندر ديفاس

الفرسان الثلاثة "مزيان"

الكونت دي صونت كريستو

زلقب مع الرّيح "مزيان"

رهبان ونساء .. وذهب

ليلة غرام

كنت هاسونا

غادة القامليسا

بحرية في الربيع

الأرض الطيبة

عزراى المعبد

ايشانهر "ألفارس الأسود"

رافيد كوبر فيلد

أهدب نوردام

اللام قمر

البحر والبحر

سوف تشرق الشمس

الكأس الأخيرة

عدالة السماء

القاتل الخفي

الرجل الغامض

غادة طيبة

عزراى ونظرة رهبان

مارغريت ميتشل

چون شتاينين

سوميت موم

مارسيل موريت

جورج سيمنه

بيرل باك

سير والتر سكوت

شارل ديكنز

فيكتور هيوغو

يهوهان جوته

ارنست همنغواي

اجاتا كريستي

جيمس هيلتون